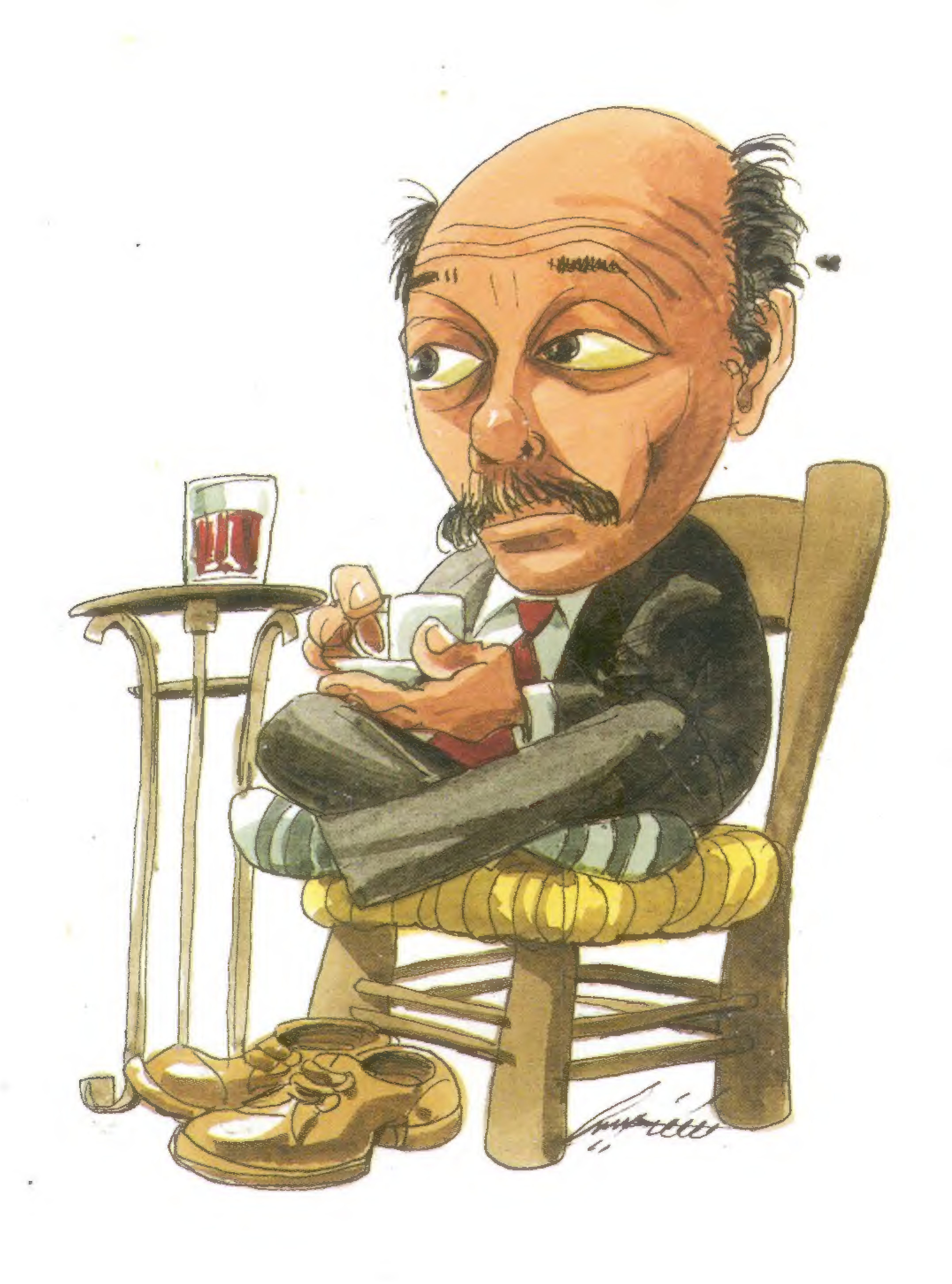
محمود السعدني

حكايات قهوة كتكوت



دار الشروق

حكايات
قهوة كتكوت

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/٩٣٢٦

ISBN 978-977-09-2842-0

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

محمود السعدني

حكايات قهوة كتوت

دار الشروق

المحتويات

مقدمة
كتابة على الأرض

محمد مستجاب

أربعة ظللت أخشاهم دهورا: سيدنا محمد عثمان شيخ الكُتَّاب، خالي أحمد خميس ناظر مدرسة النصارى، عفريت كان يداهمني بين ليلة وأخرى أثناء تسللي إلى غيط طماطم الجيران ليلا، وامرأة كانت تفتح عينها وترفع حاجبها تحديا وهي تخطو فوق العتبة لتدخل إلى واحد من أثرياء بلدتنا دون اهتمام بمشاعرنا، وخامسهم السعدني ـ محمود ـ هذا الذي جذب القصة من بين آهات يوسف السباعي ونوافذ حارة نجيب محفوظ وإنسانية محمود البدوي وحزن يوسف إدريس المرير، جذبها من شعرها ـ هذه القصة المكتوبة في الورق المسطور ـ وألقى بها على أرضية الشارع المكفهر، لتتلوى صارخة ضاحكة تتلاطم مع محلات الكفتة ولحمة الرأس والممبار ولفائف البطولة الصارخة الواهنة، وسحب اللغة الرصينة الدافئة المنظمة من بين جدران أساليب

المنفلوطي وأمين الخولي وطه حسين، وخلع عنها أرديتها لتجري عارية واقعية في شوارع الجيزة والأحراش المبكرة لشارع الهرم، وجعلها ـ إن أراد أن تبدو لامعة ـ تجلس بعض الوقت تداعب بأقدامها الحافية تيارات ناعمة من مياه البحر الأعظم، ثم يسامر اللغة ـ آخر الليل ـ على قهوة كتكوت، لتفرز أنواعا من السلوك الواقعي الحقيقي لشعب ظل الكثير من المعبرين عنه يؤلفون له ما لا يعرفه ـ هذا الشعب ـ أبدا.

كنت ريفيًا أتلهف على قراءة ما أستطيع الوصول إليه من أوراق، حينما عاد محمود السعدني من الجزائر لينشر تحقيقاته المتفردة عن ثورتها، ظل أيامها يثابر (يهابر أفضل) كي يجد طريقا للخروج عما هو معهود من السياق اللغوي والمعاني الجميلة، وخلال ذلك، أو قبل ذلك، قرأت له أقاصيص في مجلة التحرير أو الرسالة الجديدة ـ فيما أعتقد، وكان من بينها ـ والاعتماد هنا على الذاكرة الصبيانية الرائقة ـ قصة (جنة رضوان) التي حملت فيما بعد عنوان مجموعة كاملة، لكن الأخطر من كل ذلك أنه ـ بعد ذلك بسنوات ـ كتب روايته الحلوة الشائكة الواخزة: حتى يعود القمر، بالطبع كانت الرواية على غير النسق والمعاني المعهودة السائرة والسارية أيامها، فقد فتح السعدني بطن الواقع الذي كانت اللافتات والشعارات والمكتوبات من قصص ومقالات وروايات قد جهلته (لم أقل تجاهلته)، كانت حروب الفدائيين ضد الإنجليز في معسكرات القنال قد استولت ـ بطبيعة الأمر ـ على عواطفنا

فور إلغاء المعاهدة الشهيرة بالصداقة، وهو ما أثبت قدرة هذا الشعب المصري (أيامها) على الصلابة والقدرة والتحمل، ووقع شهداء من كافة الفصائل مدنيين وشرطة، مما أدى إلى ثورات عارمة في الشوارع ـ في كافة البلاد ـ تندد بالنظام الخائن والملك الخائن، حتى وصل الأمر إلى حرائق القاهرة الشهيرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، وخلال اضطرابات سياسية وتغييرات وزارية واعتقالات ثورية، قام عبد الناصر بانقلابه المعبر عن هذه الثورة (وأنا أميل إلى الإنصات إلى استنتاج يشير إلى أن عبد الناصر قطع الطريق على ثورة شيوعية)، وكل ما كتب من موضوعات أو تنظيرات لم تومئ أبدا أو تكتشف أو تغوص في أتون النار الذي اشتعل في قناة السويس أثناء حرب الفدائيين، فالحس الشعبي بالذات ظل خاضعا للشعارات والعاطفة الوطنية أكثر من الإمعان في فلسفة السلوك الشعبي في أرض الموقعة ذاتها، وكان مدهشا لدرجة تثير اضطرابي الصبياني أن أجد في رواية السعدني ـ حتى يعود القمر ـ آدميين يجعجعون صارخين بالشجاعة مقابل هؤلاء الأبطال الذين استشهدوا بالفعل، إنهم أناس من الواقع الفعلي الذي يقع في شباك السلوك العفوي التلقائي من حداقة (وصف للرجل الحدق الذي يبدو فاهما) وحركات فتونة وتراقص واستذكاء خلال عمليات تهريب السلاح للفدائيين أو إيوائهم، كانت طبيعة الناس تتفسخ في الرواية كاشفة عن أمور لا نحب نحن الكتاب أن نتورط فيها عادة، وهي ثورة تعبير لم يدركها أحد من النقاد حتى الآن، أدركتها وحدي وكانت من بين أسباب اقتحامي الشخصي لهذه المعاني

والمثل التي يصمم كتابنا أن يحافظوا عليها معتقدين أنها تصنع المجد الشعبي العظيم.

ولم يغب السعدني عن بالي أبدا، كنت قد كبرت وظللت ـ في تلك السنوات المريرة الطويلة ـ أبحث عن عمل دون إهمال في الوقوع داخل حفر الغرام الملتهب بين مرارة وأخرى، لكنني ظللت مع السعدني في مواقعه المبكرة مع لويس عوض، ومأمون الشناوي، وشاركته أسى اصطدامه بيوسف السباعي أيام علاج طفلته الغالية (هالة)، وما صاحب ذلك من مرارة الواقع المصري، وظللت أتقلب بين ربا وتلال ووهاد ووديان وجزر وخرابات وحدائق وسجون ومطاعم ومجالس تحشيش وشرب بوظة ومتاجرة في شعارات، العالم عنده يتسع ويتسع حتى يملأ حارة بالجوعى، ثم يضيق ويضيق حتى يختنق بين قارة إفريقيا، الواقع هو سيد الموقف، والحس الشعبي الغامر هو رقصة الزار الصاخبة التي بسببها سجن واعتقل ـ هذا الكاتب الجميل المتفرد ـ في كافة العصور، ولاذ بعثمان أحمد عثمان في المقاولون العرب، ثم هرب إلى لندن (وبالمناسبة كان يصدر مجلة ٢٣ يوليو أو يكتب فيها خلال تلك السنوات التي تكاره فيها مع السادات)، ثم إلى الخليج، حياة تبدو مترفة بالمرارة والغربة والحزن الذي يكوي سراديب العقل والفؤاد، حيث ينتهي الأمر ـ كل الأمر ـ في طاسة تعبق برائحة الكبدة المحمرة بالبقدونس، وقد حاصرتها جدران المعتقلات: الحوائط والكلمات.

وظلت خطوطي مع السعدني تتوازى (الخطوط وليست الحياة ذاتها). اشتغلت في السد العالي (وبالمناسبة كنت في شركة عثمان) وعدت إلى القاهرة لأتزوج وأظل سنوات طويلة في مجمع اللغة العربية، وأقرأ السعدني، وأشارك في مهاجمة السعدني وأفتح بطنه وأقلب تجاربه وأزداد به حبا، وانتقادا، وسخرية.

* * *

منذ شهور ـ قد تتجاوز العام ـ جاءني صوته الشارخ في التليفون: واد يا مستجاب.. عاوز أشوفك.

وتوجهت إليه...

١ ـ ريعو

من هنا وإلى ما شاء الله سنحكي للقراء قصة بزوغ وسقوط قهوة كتكوت وقهوة كتكوت وإن كان لها شكل القهاوي المنتشرة في كل ركن في ربوع مصر، إلا أنها كانت بحق نموذجا مصغرا لمصر كلها، وهي دون القهاوي كلها كانت تغير جلدها عدة مرات في اليوم الواحد، في الصباح الباكر كان يتردد عليها بعض كتبة المحامين، وجمع كثير من الفلاحين الذين ينتظرون النظر في قضاياهم أمام المحكمة وفي الظهيرة كان يجلس عليها بعض الطلبة المزوغين من مدارسهم، وبعض عمال أستديو مزراحي، وهو يهودي إيطالي عمل مخرجا بالسينما المصرية، وأحيانا كان يتجمهر أمام القهوة بعض الصبية والشباب للفرجة على بعض الكومبارس الذين كانوا يترددون على القهوة حتى يحين دورهم في الوقوف أمام الكاميرا وكان فقراء الجيزة ينظرون إلى هؤلاء الكومبارس نظرتهم إلى النجوم، وكان تلاميذ مدرسة ميلاد يصحبون معهم مصورين يحملون آلات عتيقة لها ستائر

سوداء بالإضافة إلى جردل مملوء ماء لزوم التحميض. وفي ساعة المغربية كان يقصد القهوة جماعة من الموظفين ـ صغارا وكبارا.. من العاملين في دوائر الحكومة من درجة رئيس قلم ومدير إدارة.

وكان هؤلاء حريصين كل الحرص على ارتـداء ملابسهم كاملة، مع الإكسسوار اللازم من منشات وعصي بعضها كريز وبعضها أبنوس، وفي تلك الفترة التي تمتد من المغرب وحتى الحادية عشرة مساء، كان الهدوء يخيم على القهوة، فلا صوت يعلو أكثر من اللازم، ولا درجة حرارة المناقشات ترتفع أكثر من الضروري، وعندما يغادر الموظفون قهوة كتكوت، تشهد القهوة نوعا آخر من الرواد، مجموعة من الأدباء والصحفيين، وهؤلاء تسبقهم جلبة وضوضاء، والسبب أن مجموعة من طلبة الجامعة كانوا يأتون مبكرين قبل حضور الأساتذة، وكان هؤلاء يبدءون المناقشة قبل بدء الجلسة، يصيحون ويصرخون ويسبون بعضهم بعضا، وعندما يحضر الأساتذة كان الهدوء يعود إلى القهوة، ولكنه هدوء يختلف عن هدوء الموظفين، وكانت جلسة الأدباء تنتهي عند الفجر، ومع أن السهر كان ممنوعا بعد منتصف الليل، إلا أن عساكر الداورية كانوا يشعرون بحاستهم السادسة أن هذه النوعية من الزبائن تختلف عن الزبائن الآخرين، وربما كانوا يعتبرونهم جزءا من الحكومة خصوصًا وأن جلستهم كان يتردد عليها بعض «اللواءات» في ملابسهم الرسمية، وكان المعلم كتكوت نفسه يبقى أيضًا في مكانه لا يتحرك وقد بدت عليه علامات الزهو لوجود

هؤلاء السادة ضيوفا على القهوة، وبالتأكيد فإن زهوه لم يكن سببه معرفته بأن هؤلاء الزبائن من الأدباء، ولكن لأنه كان يؤمن بأنهم من رجال المباحث وبعد انصراف الأدباء، وتلاميذهم من الطلبة كان العمال ينهمكون في تنظيف القهوة وغسيل الصواني والملاعق والأكواب، ومع ذلك كانت لا تخلو من زبائن آخرين، أبرزهم زنوبة وهي امرأة كانت لها شنة ورنة، وكانت أثيرة عند كبار تجار الماشية والحبوب، ثم تدحرجت بها الأحوال عندما تقدمت في السن، فأصبحت أثيرة لدى طلبة الجامعة الريفيين الذين جاءوا لتحصيل العلم في القاهرة، ثم تدحرجت أكثر حتى أصبحت مرغوبة عند طبقة الشيالين والعتالين والتباعين، وكانت تمارس الحب في سيارات النقل أحيانا وعلى الرصيف في أغلب الأحيان وكان من عادتها أن تسرح طول الليل في شارع الترومواي وفي الشوارع المتفرقة من الميدان، فإذا ظهر ضوء الصباح لجأت إلى قهوة كتكوت فتشرب الشاي بالميزة، وتدخل في خناقة حامية مع الواد ريعو، ثم تضطر إلى مغادرة القهوة بعد أن يلعن لها المعلم كتكوت «أباها»، ولكن زوبة لم تكن من الناس الذين يرعبهم الصياح، ثم إنها كانت تعرف المعلم كتكوت جيدا وتعرف أنه رغم منظره المخيف إلا أنه كان من النوع الذي يحاول بالصوت إرهاب خصمه، فإذا لم يخف الخصم وأظهر ميلا إلى العراك تحول المعلم إلى عجينة لينة وهشة وظهر على حقيقته مجرد جعجاع لا غير، ولذلك كانت أغلب خناقات زوبة والمعلم كتكوت تنتهي بطلب واحد شاي للست زوبة على حساب المعلم، الذي كان يتنازل

ويجلس مع زوبة يذكرها بالأيام التي ولت والزمن الذي كان، وفي أثناء جلسة الصلح كان المعلم كتكوت يحكي كذبا عن علاقته الطيبة مع زوبة التي لم يكن لها وجود في أي يوم من الأيام فقد كانت العلاقة بينهما متوترة، وكان المعلم في أعماقه يحقد عليها إلى حد بعيد ففي أيام عز زوبة، حين كان يتخطفها التجار الأثرياء وأصحاب الوكالات وتجار الجملة في ساحل الغلال كان المعلم كتكوت في أيام شبابه ذا شارب مفتول وصحة مش بطالة، ولكنه كان مجرد قهوجي، ولهذا السبب لم يتمكن من دخول دائرة عشاق زوبة ولما كان المعلم كتكوت يرى نفسه أحق بزوبة من الآخرين، فقد بادلها احتقارا باحتقار، وكان يتجاهلها عن عمد، حتى فوجئ ذات صباح بدخولها القهوة تطلب كوب ماء مثلج ودعاها المعلم إلى زجاجة قازوزة سباتس، ودعاها إلى الجلوس ولما كان الوقت مبكرا فقد مازحها المعلم ومازحته، وامتدح حسنها وجمالها، وشكرته زوبة، وتمادي المعلم وطلب لها شيشة، وانهمك في توليعها حتى أصبحت تمام التمام، ثم مد يده بالشيشة فلما مدت يدها، تجاهل اليد الممدودة ووضع الشيشة بين شفتيها ثم نزل بيده على صدرها البارز في حركة تبدو للغشيم أنه لا يقصدها، ولكن زوبة الأروبة دفعت يده بعيدا وهي تلعنه وتلعن أباه، وخاف المعلم كتكوت من الفضيحة فأقسم برأس المعلم كتكوت الكبير أنه لم يقصد شيئًا على الإطلاق وأن يده اصطدمت بصدرها البارز دون إرادته ومن يومها وحسك عينك لا يرتكب المعلم كتكوت أي خطأ مع زوبة.

وإذا كانت هذه السطور لمحات عاجلة عن قهوة كتكوت، إلا أنها كانت ضرورية قبل أن ندخل في صلب الموضوع، لكي يعرف القراء أن قهوة كتكوت وإن كان لها شكل القهاوي إلا أنها تختلف عن جميع القهاوي، فزبائنها ليسوا من نوع واحد أو لون واحد، وتأريخنا لها يبدأ في العام الذي سبق قيام الحرب العالمية الثانية، وإذا كانت الحرب العالمية قد نشبت في أوروبا، فقد أثرت بشدة على قهوة كتكوت في الجيزة وعلى العاملين فيها وعلى زبائنها المترددين عليها، وكان تأثيرها الأكبر على صبي القهوة (ريعو) وهو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره في هيئة ولد في الخامسة عشرة. كان ضئيلا ونحيلا ومصابا بالهزال بسبب البلهارسيا وسوء التغذية وكان بينه وبين المعلم كتكوت ما صنع الحداد وبالرغم من ذلك لم يفكر ريعو في الاستقالة، وأيضًا لم يفكر المعلم كتكوت في طرده ولعل حاجة المعلم كتكوت لريعو كانت أكبر من حاجة ريعو للمعلم كتكوت؛ إذ كان من عادة المعلم إذا تعكر دمه أو انحرف مزاجه أن يفش غله في الولد ريعو؛ كان أحيانا يصرخ في وجه ريعو حتى تنتفخ عروقة ويتصبب العرق من جبهته ثم يهوي عليه بالركلات حتى يهدأ ويصفو ويعود إلى حالته الطبيعية، وعندما قامت الحرب العالمية لم يشعر المعلم كتكوت بأي تغيير فالميدان كما هو وزبائن القهوة هم هم والحياة تمضي في الحرب كما كانت تمضي قبلها، صحيح أن صفارات الإنذار تعوي أحيانًا ولكن المعلم كتكوت تعلم بالتجربة أنها صفافير كذابة، فلا قنابل سقطت ولا شهداء سقطوا ولا جرحى نقلوا

للمستشفيات ولذلك أعطى المعلم كتكوت ظهره للحرب وتفرغ للقهوة وللزبائن وللولد ريعو.

أما ريعو فقد غيرته الحرب كثيرًا، فبين الحين والآخر كان المعلم كتكوت يضبط مع ريعو بطانية جديدة أو خرطوشة سجاير أجنبية ولم يهتم المعلم كتكوت كثيرا بهذه الظاهرة، فهو يعلم أن الولد ريعو عفريت، وربما وصلت إليه عن طريق عسكري إنجليزي، ولكن حدث بعد ذلك أن المعلم كتكوت فكر ذات يوم في إجراء بعض الإصلاحات في القهوة، فاستدعى أحد المهندسين وطاف به داخل القهوة وبدأ المعلم رحلته إلى دورة مياة قديمة كان قد أغلقها لكثرة أعطالها وجسامة تكاليف إصلاحها فكاد يجن عندما وقع بصره داخل الزنزانة على مخزن عامر بكل أنواع متعلقات الجيش البريطاني، بطاطين أشكال وألوان وخراطيش سجاير أصناف وماركات، وانهال المعلم بالضرب على ريعو حتى كاد يقتله واعتذر ريعو للمعلم؛ لأنه لم يستأذن قبل استخدام دورة المياه المهجورة كمخزن، وأقسم المعلم كتكوت أنه سيقتله إذا لم يكشف له عن الحقيقة، واعترف ريعو بأن كل الموجود في القهوة يعود لحسين الجنايني أحد رجال الفتوة عبده الإنجليزي ولما كان المعلم يعمل ألف حساب للفتوة عبده الإنجليزي فقد غطرش على المسألة، مع لفت نظر ريعو إلى عدم العودة إلى هذا العمل مرة أخرى، ولكن بعد مضي فترة قصيرة اكتشف المعلم أن الولد ريعو كذاب، وأن البضاعة كانت تخصه ولا تخص أحدا آخر فأقسم المعلم على الانتقام وتلقين ريعو درسًا لا ينساه. ليس

هذا فقط ولكنه استطاع أن يقنع ريعو أنه نسي المسألة تماما، وأنه أهمل عملية إجراء إصلاحات في القهوة ويبدو أن ريعو انخدع بالفعل فعاد إلى استخدام دورة المياه المهجورة كمخزن ولم تكد تمضي أيام حتى هبط ضابط المباحث على القهوة واتجه مباشرة إلى المخزن وألقى القبض على ريعو الذي اختفى في السجن لمدة عام وعندما عاد كان قد ازداد شحوبا، ومع ذلك لم يتردد المعلم كتكوت في إعادته إلى عمله في نفس اللحظة، وريعو أيضا أعلن قبوله للعمل في قهوة كتكوت في اللحظة نفسها بالرغم من تأكده من أن المعلم كتكوت هو الذي وشى به لضابط المباحث وكان ريعو إذا لامه أحدهم لقبوله العمل لدى المعلم كتكوت بعد الذي جرى كان يغمز بعينه ويقول:

ما هي دي فرصتي عشان أقرصه قرصه تطلع بالدم.

ولكن الذين كانوا يسمعون تعليق ريعو كانوا يعلمون يقينا أن ريعو كذاب وجبان، وليس بوسعه أن يرد الضربة للمعلم، وأن قبوله العمل مع المعلم كتكوت، هو قدر مفروض عليه؛ لأنه لا يعرف مكانا آخر يذهب إليه غير قهوة كتكوت وكان ريعو يعلم في قرارة نفسه أنه لا يستطيع أن يؤذي المعلم كتكوت أو يثأر منه، ومع ذلك قال للناس بعد موت المعلم كتكوت الذي فارق دنيانا بعد أربعين عاما من انتهاء الحرب العالمية.

نفد بجلده أما أنا كنت مجهز له حتة خازوق.

وضحك الناس بالرغم من أنهم كانوا يؤدون واجب العزاء في السرادق المنصوب أمام القهوة وبعضهم تمادى في السخرية بريعو وقال له أحدهم طيب اعتقه لوجه الله عشان خاطرنا والمسامح كريم يا معلم ريعو.

المهم أن ريعو مات بعد المعلم بعامين اثنين فقط، ولكنه للعجب هجر القهوة وانهمك في تشكيل رابطة لعمال القهاوي وجعل من نفسه رئيسا يتقاضى عمولة من أصحاب القهاوي ونسبة من القهوجية وكانت آخر إنجازاته في الحياة أنه طبع بطاقات عليها اسمه مسبوقة بلقب المعلم ورقم تليفون الحاج سيد الجزار على أنه تليفون الرابطة.

وجرى على قهوة كتكوت ما يجري على كل شيء في الحياة ماتت القهوة بعد موت صاحبها بأشهر قليلة، اختلف الورثة الذين لم يهتم أبوهم بتدريبهم على أي عمل غير عمل القهوة وانتهزوا فرصة عرض أحد التجار عليهم خلو رجل مائة ألف جنيه، فتنازلوا له عن القهوة مع أنهم كانوا يستأجرون القهوة وليست ملكا لهم وحل محل القهوة محل آخر ديكوراته تكلفت مئات الآلاف، محل أحذية الحذاء عنده بالشيء الفلاني ولم يكن هذا غريبا، ففي السنوات الأخيرة حلت الجزم محل الكتب والتحف والقهاوي حتى أكاد أقول: إن القاهرة تحولت إلى متحف كبير زاخر بكل أنواع الجزم ومن كل المقاسات.

٢- حكاية السيد البسيوني

أقسم عبد الودود أفندي أن يحطم رأس هذا الولد القذر ريعو، وأن يحطم في الوقت نفسه رأس المعلم كتكوت إذا لزم الأمر. ما الذي جرى للدنيا؟ وهل هانت أقدار الناس إلى هذا الحد؟ عبد الودود أفندي البسيوني.. وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة يأتي عليه حين من الدهر يلقى فيه الإهانة.. وممن من هذا الولد الهلفوت الذي يشبه البريصة الأصفهاني! هذا المدعو ريعو الكلب.. يزجر عبد الودود أفندي ويصرخ في وجهه.. قوم بقى هوينا يا عم عبد الودود! ما كان عبد الودود أفندي يتصور أو يخطر على باله أن يأتي يوم يصبح فيه هدفا لسخرية الولد ريعو. تصوروا.. يطردني من القهوة مع أن وجودي فيها ينقص من قدري ويرفع من قدرها! أربعون عاما مضت وعمك عبد الودود البسيوني يتردد على القهوة وفي مواعيد ثابتة يخرج من المصلحة إلى البيت، يأكل لقمة وينام بعض الوقت، ثم يتهيأ للخروج بعد أن يرتدي البدلة والصديري ويكبس الطربوش على رأسه ويمسك بالمنشة

بين أصابعه، أربعون عاما لم يتخلف مرة واحدة، ساعده على تنفيذ الروتين إياه أنه عاش حياته أعزب، فلم يتزوج عبد الودود ولم يفكر في ذلك، وكان من عادته إذا جلس على القهوة التصفيق للجرسون.

في البداية كان الجرسون يدعى عم عبده، وبعد ذلك جاء الولد ريعو. وكان الولد ريعو حريصًا على تقديم كل الخدمات لعبد الودود أفندي مع الاحترام الكامل. ولكن منذ سبع سنوات تغير وضع عبد الودود في المصلحة، خرج إلى المعاش عندما وصل الستين، لم يرحموه ولم يتركوه يوما واحدا بعد المعاش وضاقت به الأرض فلم يكن يعرف أي شيء إلا الذهاب في الصباح الباكر إلى مصلحة المساحة، ثم العودة ظهرا إلى البيت، ثم النوم بعض الوقت ثم الذهاب إلى قهوة كتكوت وقضاء بعض الوقت قبل العودة إلى البيت من جديد، ليبدأ مشواره الذي تكرر على مدى السنين. وحرص البسيوني أفندي على أن يقضي بعض الوقت على قهوة كتكوت بعد المعاش، نفس المدة التي كان يقضيها على القهوة قبل المعاش. واستطاع أن يحافظ على هذا الأمر سنتين كاملتين. ثم بدأ يخرج على النظام الذي فرضه على نفسه طول حياته. أصبح يتأخر على قهوة كتكوت أحيانا إلى منتصف الليل وأحيانا إلى ما بعد ذلك. الغريب أن البسيوني أفندي كان يحتقر الذين يطيلون السهر على قهوة كتكوت والقهاوي الأخرى وكان يصفهم بالصياع. وها هي الظروف تحكم عليه بالانضمام إلى صفوف الصياع و قلالات الأصل. ياله

من رصيد سيئ يا عبد الودود بعد حياة عريضة وحافلة بالوظائف الميري التي يسيل لها لعاب الكثيرين. ولو أنصف الزمان لهيأ لعبد الودود صاحب قلم من بتوع الصحافة يتفرغ لقصة صعود ورفعة عبد الودود البسيوني، الحاصل على شهادة الثقافة العامة من مدرسة الدواوين الثانوية. وبعدها بأشهر الموظف بقلم المستخدمين بمصلحة المساحة. ومن يومها وعبد الودود أفندي يلتزم بالصديري والكرافتة والطربوش والعصا الكريز بين أصابعه. وحرص عبد الودود أفندي على طلب الشاي بالحليب، طبعا طلب واحد لا غير، ولكنه كان يدفع فيه ثلاثة تعريفة، قرش صاغ ثمن الشاي وتعريفة بقشيش لريعو. ولذلك حرص ريعو على استقبال عبد الودود أفندي بحركات بهلوانية مبالغ فيها كأنه قرد.

فهذه التعريفة في ذلك الزمان كان من شأنها تأمين وجبة إفطار كاملة لرجل. ولكن آه من غدر الزمان ومن خيبة البخت وهي خيبة بلا حدود وأدت إلى أن الولد الصايع ريعو يتجرأ على طرد عبد الودود أفندي وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة سابقا، ويصيح في وجهه صائحا قوم بقى من ع القهوة وهوينا. يا دي البخت الأسود، وعلى رأي عمك شندي مطرب نزلة أم العواجز قرية عمك عبد الودود. كانت له أغنية شائعة في محافظة الغربية.. يا بخت يا بو البخوت ليه لبخت، الناس تلبخ في الوحل وأنا في الناشف لبخت. ولكن كيف تجرأ الولد الهزيل ريعو على طرد عبد الودود أفندي. الحق أن عبد الودود نفسه يتحمل جزءًا من المسئولية. فهو الذي مد فترة الجلوس على القهوة من

ساعتين إلى سبع ساعات وربما أكثر من ذلك أحيانا. ثم هو نفسه الذي تهاون في مظهره بما لا يليق به كوكيل لقلم المستخدمين بمصلحة المساحة، وما هي مصلحة المساحة؟ إنها ليست كغيرها من المصالح كمصلحة القطن ومصلحة الكيمياء ومصلحة المجاري. إنها المصلحة التي تصنع خرائط البر المصري كله وتحدد الحيازات والأملاك ومنذ أيام الباشا محمد علي وحتى اليوم. كما أن موقعها اختير بدقة متناهية.. أمام مديرية الأمن لكي يتحقق لها الأمن الكامل بفضل وجود قوات الأمن وبلوكات النظام وعساكر الأمن المركزي وبفضل هذا الموقع المحترم أتيح للبسيوني أفندي مصادقة بعض ضباط الشرطة الشباب عندما كان مجرد موظف بالقلم، ثم صادق ضباطا كبارا عندما صار وكيلا لقلم المستخدمين. وكان يجلس معهم على قهوة صمويل وهي قهوة محترمة ولها تقاليد عريقة، فلم تكن تسمح بالجلوس عليها إلا لكبار الموظفين أمثاله وأصحاب الرتب المتوسطة في الشرطة وتجار القطن. عيب عمك عبد الودود البسيوني أنه فرط في تقاليده القديمة، سمح لنفسه بالجلوس على القهوة لعدة ساعات طويلة، ليس هذا فقط.. بل إنه سمح لنفسه بتخفيف ملابسه في حر الصيف، فخلع الطربوش أولا ثم الكرافتة بعد ذلك ثم الصديري ثم الجاكتة وكان يذهب بالبنطلون والقميص. أما البنطلون فلم يكن يصلح لهذه المهمة الجديدة، فهو بنطلون مقلم وشتوي وقماشه سميك ومشدود إلى كتفيه بحمالات، أما القميص فهو بكم طويل وهو من قماش أشبه بالعبك.. سميك وخشن. أما الحذاء فله رقبة

طويلة؛ لأن البسيوني أفندي كان حريصًا على عظام ساقه في فصل الشتاء. وعاما بعد عام وفي هوجة الغلاء التي هبت على مصر كالإعصار، اضطر عبد الودود أفندي إلى اختصار النفقات، وكان من ضمن البنود الي اختصرها عبد الودود أفندي، هي التعريفة التي كانت تذهب بقشيشًا للواد ريعو. بعدها تغيرت طريقة ريعو في المعاملة وأحيانا يلقي بطلب البسيوني أفندي على الترابيزة بطريقة غير لائقة. وأحيانا كان يتعمد إلقاء بعض محتويات الكوب على ملابس البسيوني ولا يكلف نفسه كلمة اعتذار واحدة. حتى عندما احتج البسيوني مرة على هذا الإهمال المتعمد من جانب الولد ريعو رد بطريقة غير مهذبة.. يعني دلقنا مية نار!! وكأن الشيء الوحيد الممنوع دلقه على الناس هي مية النار فقط، أما كل ما عداها فهو مسموح به ولا جناح عليه! وفكر عبد الودود البسيوني أن يهجر قهوة كتكوت ولكن إلى أين؟ إلى قهوة السروجي.. أعوذ بالله. إلى قهوة صمويل.. أظرط وأضل، وتذكر البسيوني الحاجة كاملة، صاحبة البيت الذي حل ساكنا فيه منذ عشرين عاما. كانت الحاجة كاملة صاحبة أراض زراعية بناحية الهرم، فلما ضيقت الثورة الخناق على ملاك الأراضي، باعتها وأقامت عمارتها على شاطئ النيل وأجرتها بخمسة وعشرين جنيها، ولكن الثورة هبطت بالإيجارات فصارت عشرة جنيهات فقط، ولعل هذه الحركة هي الحسنة الوحيدة للثورة. بعد ذلك كل ما فعلته الثورة هباب في خراب. الولد ابن عمك عثمان بتاع السندوتشات أمام المصلحة. أصبح نقيبًا لعمال مصلحة المساحة، وصار عضوا بمجلس الأمة،

وسافر إلى أوروبا في بعثة للمصلحة، وعاد من هناك يجلس على القهوة التي يتردد عليها أسياده، لأ.. وإيه؟ صارت له سيارة بينما عبد الودود أفندي يستخدم الموتورجل، ويضطر أحيانا إلى أن يحشر نفسه داخل الأوتوبيس. على كل حال، الحاجة كاملة الخالق الناطق الحاجة ريا زميلة الحاجة سكينة بتاعة إسكندرية. ولكنها حريصة على وضع المساحيق وربط رأسها بالمنديل أبو أويه المزين بقطع الفضة اللامعة وهي منذ مات زوجها وهي حطة البسيوني في دماغها. زوجها كان رجلا متنفذا كرئيس لقلم المحضرين بالمحكمة الكلية، والبسيوني وكيل قلم المستخدمين بالمساحة. لعل الحاجة كاملة لا تدرك عمق التغيير الذي حدث لهذه الوظائف بعد الثورة. زمان رئيس قلم المحضرين يعامل معاملة وكلاء الوزارة، واليوم وكيل الوزارة نفسه ليست له أي صفة وبعضهم يتشعبط على سلم الترومواي، وربما اضطر إلى التعامل على النوتة مع البقال والجزار وبالرغم من التلميحات والإيماءات والإشارات إلا أن البسيوني كان شديد الحرص على أن يبدو صامدا وغير قابل للاحتواء. ولكن ريعو خرب الله بيته وكب زيته جعل البسيوني يعيد التفكير في أمر الحاجة كاملة. ولا شك أن هناك فوائد كثيرة سوف يجنيها البسيوني لو اقترن بالحاجة كاملة. أول شيء سيوفر الجنيهات العشرة إيجار الشقة، وستعينه هذه الجنيهات على شراء بنطلون صيفي وحذاء خفيف وقميص بدون ياقة لاستخدام الصيف.. وزواجه منها سيمنعه من السهر على قهوة كتكوت وسيرد له هيبته التي اهتزت وكبرياؤه التي

ضاعت. وربما وجد البسيوني عندها لقمة حلوة، طبخة مسبكة وحتة لحمة بالبصل وشوربة فراخ بالخضار.

ومن يدري ربما تسببت في ترميم العظام التي نخر فيها السوس، والركب التي أصبحت تشخشخ مثل قضبان سكك حديد الدلتا. ولكن كيف يستطيع البسيوني أفندي إعادة مد حبال الود بينه وبين الحاجة كاملة، خصوصًا وهو في آخر لقاء عاملها بشيء من العنف، أو على الأقل من قلة الذوق. تسلمت طلبا من مأمور القسم ولكنها لم تنجح في فك طلاسمه، فسألت البسيوني أفندي أن يقرأ لها خطاب المأمور، فطلب منها الخطاب فدعته أن يتفضل عندها بعض الوقت؛ لأن الخطاب في الداخل. ولكنه اعتذر، طلبت منه التمهل بعض الوقت حتى تأتي بالخطاب من الشقة، ثم تركته على سلم البيت وهرعت إلى أعلى، ثم عادت بعد فترة فلم تجد البسيوني أفندي. صحيح أنها تأخرت بعض الوقت، ولكن فيها إيه يعني؟ والناس لبعضها.. وإيه اللي جرى في الدنيا يا ناس؟ من يومها والعلاقة توترت بعض الشيء. ولكن تكفي إشارة بسيطة من جانب البسيوني فتعود العلاقة سمنة على عسل أو تزيد، انتهز البسيوني فرصة أول الشهر فصعد إلى الشقة ودق جرس الباب، وعندما فتحت الباب فوجئت بالبسيوني شخصيًّا فتراجعت إلى الخلف بسرعة، ثم عادت وقد غطت رأسها وقالت في صوت منغم.. خطوة عزيزة اتفضل، وتفضل البسيوني وجلس في الصالون وعندما سألته عن المشروب الذي يفضله.. قال على الفور:

قهوة بإيدك الحلوة دي.

وفهمت الحاجة كاملة الإشارة فابتسمت وقالت:

من عيني! أغرب شيء أن البسيوني كان يبحث لنفسه عن مبرر لصعوده إلى الشقة غير حكاية دفع الإيجار، ولكنها لم تسأله عن سبب صعوده، وكأن صعوده إليها مسألة طبيعية كان يجب أن تحدث منذ فترة طويلة.

لم تستمر طويلا فترة التمهيد للحدث الأكبر، فبعد فترة قصيرة تم الزواج بين الحاجة كاملة والبسيوني أفندي وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة.

مرت أيام كثيرة قبل أن يدرك أنه خرج من نقرة ووقع في خندق عميق. البسيوني الذي كان يشعر بأنه في حاجة إلى ممرضة، تحول هو نفسه إلى ممرضة للحاجة كاملة. اكتشف البسيوني بعد شهر واحد من الزواج أن الحاجة هي مستودع لجميع الأمراض. ثم إنه لم يتحول إلى ممرضة فقط ولكنه تحول أيضًا إلى فراش للبيت، هو الذي يذهب إلى الشهر العقاري وإلى الجمعية الاستهلاكية وإلى مكتب التموين وإلى السكان لجمع الإيجار، ثم إلى البنك لوضع حصيلة الإيجار هناك. وشعر البسيوني أن الذي أوقعه في هذه المحنة هو الولد الصعلوك ريعو لولا ريعو وسفالته لما سقط البسيوني في هذا المطب الذي لا خلاص منه على الإطلاق. واللي زاد وعاد أنه عندما قرر التمرد على هذا الحال المايل وخرج من البيت لم يجد إلا قهوة كتكوت ليجلس عليها. لا يعرف البسيوني

كيف قادته قدماه إلى القهوة وإلى الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه بالقرب من مجلس الأدباء. هؤلاء الأدباء هم وحدهم من دون زبائن قهوة كتكوت الذين لم يتغير موقفهم من بسيوني سواء كان في الخدمة أو خارجها، سواء كان بملابسه الكاملة أو بالبنطلون والقميص.

وأحدهم زجر الولد ريعو ذات مرة عندما ضبطه وهو يسخر من بسيوني. هذا الأديب للأسف الشديد بسيوني يعرف صورته ولكن اسمه يغيب عنه دائما.

جلس بسيوني كعادته وصفق للواد ريعو، ولكن الولد اللئيم ريعو أشار له بيده وقال صائحا:

بطلوا التصقيف والحاجات دي. مراكز القوى خلاص وقعت ونايمة دلوقت ع الأسفلت.

قالها ريعو وضحك واستغرق في الضحك وضحك معه بعض الجالسين على القهوة وتمنى لو كان معه مطوة قرن غزال ليغرزها في صدر ريعو، وكان يتمنى قبل ذلك أن يكون معه قلب شجاع يعينه على ارتكاب مثل هذه الجريمة. هذه الحياة لم تعد تستحق أن يحياها الإنسان.

وكيف وهو بين نارين: نار ريعو ونار الحاجة كاملة. ولكن نار ريعو هي نار مع فضيحة بجلاجل، هي نار قطاع عام ومشاع للجميع، واللي ما يشتري يتفرج. أما نار الحاجة كاملة فهي قطاع خاص، نار ملاكي، نار يتقلب البسيوني على جمرها، ويتفرج

عليها وحده، ويعاني منها وحده، نار كتيمي وسكيتي.. ولا من شاف ولا من دري. وإذا كان الموت هو الحل الوحيد لهذا الحال الذي هو فيه، فالبقاء مع الحاجة كاملة هو موت مع وقف التنفيذ، هو موت مع الستر، والستر هو أعظم هدية يقدمها الله لعباده الطيبين.

وخرج البسيوني من قهوة كتكوت راكضا ولم ينس أن يلقي نظرة ذات معنى على الولد ريعو وعلى المعلم كتكوت أيضًا وهو جالس في مكانه منذ بداية الحرب العالمية الأخيرة. وأسرع البسيوني الخطى إلى شارع المرسي حيث يقيم. وصعد السلالم بتثاقل شديد حتى وصل إلى الدور الأخير. وطرق الباب عدة طرقات حتى فتحت له الحاجة كاملة، فأخذ طريقه من الباب إلى الغرفة، وخلع ملابسه وتهيأ للنوم ولم يجد لديه رغبة في الرد على السؤال الذي وجهته له الحاجة كاملة. ولم يمض وقت طويل حتى استغرق في نوم عميق عميق عميق.

وفي المساء كان ثمة شادر متوسط أمام بيت الحاجة كاملة والشيخ سلومة يقرأ القرآن من ميكروفون مشروخ، وبعض سكان الشارع يجلسون في خشوع يستمعون إلى القرآن ويشربون القهوة وبعضهم يستحلب قطع الأفيون. لم يكن أحد من المعزين يعرف المرحوم، وإن كانوا جميعا يعرفون اسمه.. البسيوني ولكن لم تكن هناك صلة حقيقية تربط بينه وبين أحد منهم. المنظر الذي يستحق التسجيل، هو منظر الولد الحقير ريعو وهو يقف على

باب السرادق يستقبل المعزين ويتقبل منهم واجب العزاء، بينما كان المعلم كتكوت يجلس على المقعد المجاور لدكة المقرئ، ولم ينس المعلم كتكوت أن يشير للولد ريعو بين الحين والآخر مؤكدا عليه ضرورة الالتزام بواجبات مركزه كمندوب عن أهل الميت الذي لا أحد يعرف أين هم؟ ولا من هم على وجه التحديد؟

٣ـ القطط السودة!

خطاب أفندي مدرس إلزامي كانت له شهرة واسعة في الجيزة بسبب أشعاره الحماسية التي كان يلقيها بمناسبة وبدون مناسبة في أغلب الأحيان، وهي أشعار حماسية ووطنية ولكنها فقيرة الموهبة وخالية من الفن. وكان الجرسون ريعو هو أعظم مشجع للشاعر خطاب، عندما كان خطاب أفندي يقفز فجأة واقفًا داخل القهوة ثم يلقي قصيدته التي هي غالبًا بدون معنى وبدون هدف، أشعار كان يستخدمها في المعارك الانتخابية ضد معارضي حزبه، الذي كان يفخر بالانتساب إليه وهو الحزب السعدي، وهو حزب أقلية كانت له قيادة ولم يكن له قاعدة أو جماهير من أي نوع.

ولكن الحزب إياه كان يقفز إلى السلطة عندما يغضب الملك على حزب الوفد ويطرده من السلطة، عندئذ ينجلي خطاب أفندي ويلمع ويجوب الجيزة كلها يلقي أشعاره الفخيمة على الناس سواء رغبوا في سماعها أم انصرفوا عنها.

وكان خطاب أفندي في ظل حكومة السعديين يمارس حياته

بين الناس كواحد من كبار المسئولين، فكان يقوم بفك أسر بعض المواطنين الذي احتجزهم البوليس على سبيل التحري، ويضمن بعض التجار الذين وضعوا في أقسام البوليس للعرض على النيابة بسبب مخالفتهم للتسعيرة. وكان خطاب أفندي يتلقى بعض الهدايا نظير هذه الخدمات، وكان ضباط البوليس يعاملونه باحترام ويتقون شره لصلته ببعض وزراء الحكومة. وكان له بيت شعر مشهور يحشره في كل قصيدة وكان يهاجم فيه المعارضين للحكومة:

صم بكم قوم عجب   قطط سود ولها ذنب!

وكانت الجماهير التي يتصادف وجودها يصفقون بشدة، ولعل هذا هو السبب الذي جعل خطاب أفندي يحشر البيت إياه في كل قصيدة، كما أن الواد ريعو كان يداعب خطاب أفندي أحيانا قائلا: من زمان ماسمعتش القطط السودة. ولكن خطاب أفندي كان يواجه أياما صعبة عندما يخرج الحزب السعدي من السلطة، ولذلك كان يصدر قرار بنقله إلى مدرسة في ريف الجيزة، فيختفي رغم أنفه من قهوة كتكوت؛ لأن مشواره إلى المدرسة الريفية كان كفيلا بهد حيله، ولكنه كان يعاود الظهور يوم الخميس ويوم الجمعة، ولا يكف عن ترديد أشعاره ضد الحكومة القائمة إذا كانت ضد الحزب السعدي. وفي المرة الأخيرة التي جاء فيها الوفد إلى السلطة اختفى خطاب تقريبًا من الجيزة ومن قهوة كتكوت، ولكنه عاد إلى الظهور بعد حريق القاهرة ومجيء وزارة علي ماهر؛ ثم وجد وسيلة استطاعت إعادته إلى مدرسته القديمة في شارع سوق البرسيم في الجيزة،

ولكنه لم يستطع الحصول على ميزات أخرى غير النقل فلم يكن بإمكانه التوسط لدى قسم البوليس للإفراج عن أحد، كما أن علي ماهر باشا لم يكن من أعداء الحزب السعدي، والبلد كلها كانت تعيش في ظل الأحكام العرفية بعد حريق القاهرة، وكان السهر ممنوعا والمحلات العامة تغلق أبوابها قبل التاسعة مساء. كانت أياما عاصفة بلا شك، ذهب علي ماهر وجاء أحمد نجيب الهلالي، حكومة في نظر خطاب أفندي بلا لون وبلا رائحة، ولكنها أعطت مجالا لخطاب أفندي عندما رفعت شعار التطهير، فانطلق يؤلف أشعارا في ضرورة تطهير البلد من الخونة والمفسدين، وركز حملته على النحاس باشا، ولكن بعض الشباب الوفدي المتحمس تعقبه ذات مساء وضربه علقة ساخنة.

واستثمر خطاب أفندي الحادث فنام على سريره بالمستشفى، ورفع قضية أمام المحاكم يطالب بتعويض مالي كبير، متهمًا النحاس باشا شخصيًّا بالتحريض على ضربه. ولكن فجأة وخطاب أفندي في المستشفى وقع حادث ليس له شبيه في تاريخ مصر، فقد قامت ثورة ٢٣ يوليو وتولى الجيش إدارة شئون البلاد، وجاء محمد نجيب رئيسا للجمهورية، واعتقد رواد قهوة كتكوت أن عصر خطاب أفندي انتهى ولن تقوم له قائمة بعد ذلك. كان الشاب الذي تولى أمر هيئة التحرير بالجيزة ضابطًا سابقًا بالقوات المسلحة، وكان برتبة اليوزباشي عندما ودع الحياة العسكرية واشتغل بالعمل السياسي في الهيئة، ولم يكن له سابق معرفة بالعمل السياسي أو التعامل مع الجماهير، ولكنه كان مؤمنا بالثورة. ومتحمسًا للتغيير.

ولكن التغيير إلى ماذا؟ وإلى أين؟ كانت مهمة صعبة للغاية، ولكن عزاءه الوحيد أن الناس كانت متحمسة للثورة ولديها الاستعداد للالتفاف حول رجالها.. واحتل الشاب الطيب مكتبًا كان يتبع المجلس البلدي، ونصحه البعض بإقامة مؤتمرات جماهيرية، واستفسر عن الوسيلة التي تؤدي إلى عقد هذه المؤتمرات، فنصحه البعض بإرسال بطاقات دعوة لبعض الشخصيات في الجيزة، ونصحه البعض الآخر بالقيام بجولة في أنحاء الجيزة للتعرف على الجماهير. ولكنه اختار الاقتراح الأول بإرسال بطاقات الدعوة، وحددوا الموعد وزينوا المقر، ولكن المنظر لم يكن يدعو إلى الاطمئنان، لبّي الدعوة عدد من أصحاب محلات البقالة ورئيس المجلس البلدي وبعض الصياع الذين وجدوها فرصة لشرب الشاي وتدخين السجاير.

وجلس مندوب هيئة التحرير الشاب يشرح للناس أهداف حركة الجيش، ولم يفهم أحد شيئًا على الإطلاق. ويبدو أن مندوب الهيئة لم يكن يفهم شيئًا هو الآخر، وجلس المندوب قلقا على مستقبل الهيئة، ولكن قلقه على مستقبله السياسي كان أكبر. وخيم الصمت على الاجتماع، فلم يكن للحاضرين أي رابطة من أي نوع من قبل.

وربما لم يلتقوا في أي مناسبة قبل ذلك. ولم يعرف مندوب الهيئة الشاب كيف يتصرف لمواجهة هذه الحالة من الإحباط والخيبة.. وفجأة انتفض أحد الحاضرين كالإعصار، وألقى قصيدة عصماء

وسرعان ما عرف الناس صاحبها عندما راح يصرخ بكل قوة ببيت الشعر الشهير: قطط سود ولها ذنب..! وعندما انتهى خطاب أفندي من قصيدته العصماء، انطلق مندوب الهيئة نحوه واحتضنه بشدة، وأمسكه من يده وظل ممسكا بها حتى انفض الاجتماع. ودعاه إلى العشاء، ولم يتركه إلا عند باب منزله، وبالرغم من إلحاح خطاب أفندي على النزول قبل البيت بمسافة، إلا أن مندوب الهيئة الشاب أقسم ألف يمين أن لا يتركه إلا عند باب البيت، ولو كانت الظروف تسمح لبقي معه حتى الصباح. ولكنه تواعد معه على اللقاء عصر اليوم التالي في مقر الهيئة.. عندما خرج خطاب من الاجتماع، كان قد أصبح المسئول التثقيفي للهيئة. ولما كان المقر لا يسمح بوجود مكتب للأستاذ خطاب، فقد اتخذ من قهوة كتكوت محلا مختارا له.. وكان مندوب الهيئة الشاب يتردد عليه أحيانا، ثم أصبح يلازمه كل ليلة ويستشيره فيما يجب عليه أن يفعله من أجل تحريك الجماهير وحشدها، ثم أصبح يعتمد عليه في كتابة الخطب المناسبة ليلقيها في المناسبات الهامة. وصار خطاب أفندي هو ممثل حركة الجيش في الجيزة، والتف حوله أصحاب الحاجات، وعاد لخطاب أفندي نفوذه القديم، يتوسط للناس لإخراجهم من قسم البوليس، ويتوسط لهم لإلحاقهم بالوظائف لزوم أكل العيش.. وكان المعلم كتكوت شديد الذكاء لدرجة أنه أعفى خطاب أفندي من ثمن المشروبات، عشان خاطر البيه الضابط الشاب الذي صار مندوبا لهيئة التحرير، ثم تطورت الأمور وذهبت بعيدا إلى درجة أن الضابط الشاب مندوب الهيئة

كان يستفسر عن الأهداف الحقيقية للهيئة، وكان خطاب أفندي لا يبخل على الضابط الشاب بنصائحه واقتراحاته.. وأقنعه بأن مصلحة العمل الجماهيري والسياسي في الجيزة أن يكون لقهوة كتكوت الحق في السهر حتى الصباح.

وبالفعل بذل الضابط جهدا مشكورا حتى حصل لقهوة كتكوت على هذا التصريح.

وبالطبع لم يبخل المعلم كتكوت على خطاب أفندي، فأجرى عليه راتبا شهريا خمسة جنيهات عدا ثمن المشروبات. فلما كثرت الطلبات وتضاعفت المشاريب، اشترط المعلم كتكوت على خطاب أفندي أن يعفى من المشروبات الضيوف الذين يجلسون على مائدة خطاب أفندي، أما الذين يقصدونه لأشغال أو مصالح ويجلسون بعيدا عنه فيدفعون ثمن مشروباتهم.. ولم يمانع خطاب أفندي بل رحب بالفكرة، واقترح اقتراحا مفيدا هو أن تضاعف القهوة ثمن مشروبات أصحاب الحاجات والمصالح، بشرط مضاعفة المكافأة المالية لخطاب أفندي إلى عشرة جنيهات، وانتهز المعلم كتكوت الفرصة فبالغ في ثمن المشروبات، ولكن الزبائن كانوا يقبلون بالأثمان التي يحددها المعلم كتكوت، فيكفي أنهم يلتقون بخطاب أفندي ويحصلون على كروت توصية، وهي كروت البيه الضابط الشاب مندوب هيئة التحرير بالجيزة.. وكان لها مفعول السحر في البداية، ثم هبط تأثيرها بعد ذلك، ثم تلاشى التأثير تماما.. ومع ذلك لم تنقطع وفود أصحاب الحاجات

عن التردد على قهوة كتكوت، ولم يتوقف خطاب أفندي عن ترديد الوعود بكروت التوصية مع علمه بأنها أصبحت غير ذي موضوع.

المهم أن الفائدة تتم بحضور الوفود وطلب المشاريب ودفع ثمنها للمعلم كتكوت، ثم صرف المكافأة الشهرية «لخطاب أفندي».

أخيرا طابت الحياة واستقرت لخطاب أفندي، فالثورة باقية إلى نهاية الدهر، والبيه المندوب شاب لا يزال، وسيبقى في منصبه إلى نصف قرن من الزمان.. لم يدرك خطاب أفندي أن الحياة ممكن أن تستقر ولكنها لا تستمر على حال واحد، ولو حدث هذا لفسدت الحياة وربما انتهت أيضًا. فجأة اختفى الضابط الشاب، فلم يعد يراه أحد في الجيزة، حتى مكتب الهيئة أخلَوْه، انطفأت أنواره وغاب حراسه، وسمع خطاب أفندي أن الهيئة فشلت في تحقيق أهدافها، ولذلك سيجري تصفيتها وإغلاق أبوابها وتسريح أعضائها. هذه إشاعة وحق الله يا خطاب أفندي، فالهيئة كانت آخر انضباط والجماهير التفت حولها بدليل تواصل البشر التي تقصد قهوة كتكوت لمقابلة خطاب أفندي. ولكن هكذا المصريون لا يستقرون على قرار ولا يجمعون على رأي واحد. وهم أهل هدم لا أهل بناء، وقد حدث هذا من قبل للحزب السعدي، رغم أنه كان حزبا جماهيريا ليس له نظير!!

وتصور خطاب أفندي أنها مجرد إشاعة، وربما غمة لا تلبث أن

تزول، ولكن غياب الضابط الشاب أقلقه بشدة، ثم تضاعف قلقه عندما بدأت الوفود التي تقصد القهوة في الانحسار، ثم ما لبثت أن تضاءلت ثم تلاشت.

وعلى الفور أمسك المعلم كتكوت يده فلم يعد يدفع الهدية الشهرية للأفندي خطاب، والولد ريعو بدأ يقل أدبه على خطاب أفندي وعلى البقية الباقية من الذين كانوا يقصدونه للزيارة والسلام. ولكن خطاب أفندي لم يتعلم الدرس، وثار وغضب وطالب الجميع بضرورة احترامه وتوقيره، وألمح للمعلم كتكوت بأنه سينتقم منه انتقاما رهيبا عندما تعود المياه إلى مجاريها.. وأقسم إنه عندما يعود الزمان إلى الابتسام سينتقل نشاطه السياسي والجماهيري إلى قهوة عبده الإنجليزي.. ومرت شهور طويلة، وجرت مياه كثيرة تحت كوبري عباس قبل أن يكتشف خطاب أفندي أن هيئة التحرير قد جرى عليها ما يجري على كل شيء في الحياة، وأن الاتحاد القومي حل محلها، وعندما شاع الخبر وذاع، احتدمت الخلافات بينه وبين الولد ريعو والمعلم كتكوت وذات خناقة قامت بينه وبين الولد ريعو اضطر المعلم كتكوت إلى مغادرة مكانه بجوار النصبة، وأغلظ القول لخطاب أفندي واضطر المعلم لدفعه دفعة قوية خارج القهوة. وعندما تدخل البعض لفض الاشتباك ولفتوا نظر المعلم كتكوت إلى سابق عهده. ردَّ عليهم المعلم كتكوت قائلا: سيبوكم م الكلام الفاضي ده، خطاب راحت عليه زي ما راحت على بديعة!!

٤ـ عودة خطاب!

لم تتحقق تنبؤات المعلم كتكوت، فسرعان ما عاد خطاب أفندي إلى الاتحاد القومي. كان الاتحاد القومي خطوة أكثر وضوحا من منظمة التحرير، كان اتحادا بين جميع الطبقات: العمال وأصحاب الأعمال، الفلاحين وأصحاب الأطيان، المستأجرين وأصحاب البيوت. كان ائتلافا تقدره السلطة ويسيطر على المراكز الحساسة فيه الضباط الأحرار وبالرغم من أن عودة خطاب أفندي كانت متواضعة ؛لأن قيادة الاتحاد في الجيزة كانت في يد أحد أبناء العائلات الثرية في المدينة، وكان على معرفة بالناس وبأقدارهم، ولذلك استقبل خطاب أفندي بفتور ولكن من حسن حظ خطاب أفندي أنه كان زميلا للرجل الثري في الحزب السعدي، ولذلك خصص له مكتبا صغيرا بالقرب من الباب.. ولما كان خطاب أفندي قد عمل فترة من الوقت مدرسا في بعض القرى القريبة من الجيزة، فقد كانت حجرته الصغيرة تضيق أحيانا بالعمد والمشايخ، وهو الأمر الذي جعله يرتفع في عين المسئول عن العمل السياسي بالجيزة. لدرجة أنه كان يستعين به في عقد

الندوات والمؤتمرات في القرى المحيطة بالجيزة، وهي ندوات كانت أشبه بسهرات طيبة في بيوت العمد والمشايخ، وكان الحوار يدور حول موائد الطعام الدسم، حيث كانت الموائد الممدودة تضم كل خيرات الريف.

ولكن عودة خطاب أفندي كان لها صدى بعيد في قهوة كتكوت، وكان أول المهنئين هو المعلم كتكوت نفسه والولد ريعو، وفي أول زيارة لهما في مكتب خطاب أفندي، انحنى المعلم على يد الأفندي في محاولة لتقبيلها، ولكن الأفندي سحب يده مستغفرا ربه، واكتفى بغمز المعلم بطريقة ساخرة:

ـ مش أنا يا معلم اللي راحت عليه زي بديعة؟!

ورد المعلم قائلا:

ـ يا باشا ما تدقش على الكلام خصوصًا ساعة غضب، والشيطان شاطر وربنا يجازي اللي كانوا السبب.

وتساءل خطاب أفندي:

ـ ومين همه دول؟

وصاح الولد ريعو بدون وعي:

ـ قطط سود ولها ذنب!!

وبدا على خطاب أفندي أنه قبل اعتذار المعلم كتكوت، ولكنه اعتذر عن زيارة القهوة لأنه مشغول حبتين، ووعد بالتردد على القهوة في فترة قادمة.

وعندما ضاقت حجرته الصغيرة بزواره من العمد والأعيان، طلب إعداد مكتب أكبر، ولكن المسئول اعتذر لخطاب قائلا له: عد غنمك يا جحا. وانتهزها خطاب فرصة فطلب السماح له باتخاذ قهوة كتكوت محلا مختارا له، ووجد المسئول في قهوة كتكوت حلا للمشكلة فوافق على الفور. عادت أيام خطاب أفندي في قهوة كتكوت مع اختلاف في الصنف، كان المترددون عليه من العمد والمشايخ وأصحاب العزب، وكانوا أثرياء فعلا وأسخياء أيضًا. مما جعل الولد ريعو لا يبتعد كثيرا عن المكان الذي يجلس فيه خطاب أفندي. وأخذت الاتفاقية القديمة طريقها إلى التطبيق مع فروق شديدة. المعلم يرفع السعر على المترددين الأثرياء، وخطاب أفندي يقبض المعلوم شهريا، وكان المعلوم لا بأس به فقد وصل إلى أربعين جنيها شهريًّا!

وهكذا حلقت السعادة فوق رءوس الجميع.. خطاب أفندي والمعلم كتكوت والولد ريعو. ولكن على رأي المثل.. يا قعدين في حالكم.. المصايب جيالكم! فجأة وقع حادث لم يكن على البال. وقع الانفصال بين شطري الجمهورية العربية المتحدة. واعتكف المسئول عن الاتحاد القومي في منزله، ولاح في الجو أن الرجل انتهى سياسيا وأنه سيلزم بيته إلى آخر العمر. ومع ذلك لم يحدث شيء يعطي مؤشرا عن جوهر التغيير مستقبلا، وإذا كان الرجل المسئول قد لزم بيته فالاتحاد القومي ظل قائما، والصحف تكتب اسم الرجل على أنه المسئول الأوحد عن الاتحاد القومي. وعلى مستوى خطاب فقد استمرت القعدات

على قهوة كتكوت، كما واصل رحلاته مع مسئوله المحلي إلى قرى الريف حيث الأرز المعمر والفراخ البلدي والبط المزغط وكان خطاب أفندي يبدي حماسا شديدا للمسئول الذي لزم بيته، وخاض معارك رهيبة ضد الذين كانوا يتعرضون لسيرته بالسوء، وذات وليمة في بيت أحد العمد كان هناك شاب يبدو عليه أنه من طلبة الجامعة، أكد أن المسئول الكبير فصلوه بالفعل وأن البحث جار عن رئيس جديد. وانبرى خطاب أفندي فسخر بشدة من الشاب وقال له مستنكرا:

ـ يفصلوه.. ليه؟ هو طالب زيك. إنت عارف إنت بتتكلم عن مين؟

ونظر الشاب بغضب إلى خطاب أفندي وقال له:

ـ أنا بتكلم عن السيد أمين الاتحاد القومي.. ممنوع الكلام يعني؟

ورد خطاب متعجبا:

ـ لأ مش ممنوع، بس عيب؛ لأن دا راجل مش صغير، دا عضو قيادة الثورة، ووزير أكثر من مرة، ورئيس وزارة الإقليم الجنوبي.. مش لعبة، ثم دا لو خرج من السلطة هتحصل كارثة.

ورد الشاب قائلا في هدوء:

ـ نفس الكلام اللي إنت قلته عن أمين هيئة التحرير. وحصل إيه؟

خرج من السلطة ولا حاجة.

وزمجر خطاب قائلا:

ـ خد بالك ومالوش لازمة تغلط إنت بتتكلم عن أشرف الناس.. فاهم؟

وتدخل أحد العمد الحاضرين وقال لخطاب أفندي:

ـ حيلك شوية يا خطاب أفندي، لفندي ما غلطش، ثم إنت محموق ليه كده؟ دا حتى إنت كنت سعدي زمان، وكان ربنا فوق وعبد الهادي باشا تحت.. إنت نسيت يا خطاب أفندي؟

بالرغم من السهرة الطيبة والطعام الطيب، إلا أن خطاب أفندي شعر بالضيق من الحديث الذي دار عن الثورة، وخصوصًا حديث الشاب الذي يبدو أنه من طلبة الجامعة، وهناك شكوك بأنه شيوعي من بتوع روسيا. لكن ماذا لو صح كلام الولد الطالب وطردوا سيادة الأمين العام من منصبه وأصدروا قرارا بحل الاتحاد القومي كما حلوا هيئة التحرير من قبل؟

كانت ضربة قاسية لخطاب أفندي عندما أذاع الراديو نبأ استقالة الرجل المسئول عن الاتحاد القومي. مع أن خطاب أفندي كان قبل يوم واحد في زيارة هذا المسئول في بيته، و بالأمس فقط كان الرجل مصرا على الدفاع عن موقعه، مع تمسكه بأن الاتحاد القومي بريء مما ينسب إليه من أخطاء، وأنه إذا كانت هناك أخطاء فهي من فعل الغير. ما الذي حدث حتى يغير الرجل موقفه ويجعله

يذهب بعيدا إلى حد الاستقالة؟ ثم كيف يستقيل هكذا فجأة دون أن يعطي أنصاره فرصة لتدبير أمرهم؟ شعر المعلم كتكوت بأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، ولكنه لم يكرر ما حدث منه في المرة السابقة. حرص على أن يجلس مع خطاب أفندي حتى عندما انقطع سيل الزائرين الذين كانوا يقيمون في المقهى ويلتفون حول خطاب أفندي، ليس هذا فقط ولكنه ذهب أبعد من ذلك لتأكيد موقفه الجديد، حرص على أن يسدد الإتاوة الشهرية بالرغم من انقطاع سيل الزوار ونضوب الموارد لقد علمته التجارب أن يفكر طويلا قبل اتخاذ خطوة متسرعة وغير محسوبة، وهذا الرجل الشيطان خطاب أفندي قد يكون سيئا وملوثا ولكنه مثل القطط بعدة أرواح. وهو بالتأكيد سيعود إلى الواجهة مرة أخرى مهما تعددت وتغيرت أسماء التنظيمات. حتى الولد ريعو حرص على إحاطة خطاب أفندي بكل مظاهر التوقير والاحترام.

وبالرغم من ذلك.. اختفى خطاب أفندي من قهوة كتكوت عندما تأكد من أن الاتحاد القومي قد لحق بهيئة التحرير. وجاء الاتحاد الاشتراكي على أنقاض سلفه ولكن بوجوه جديدة. وكان مسئول الجيزة هذه المرة أستاذا جامعيا لا يعرف من الجيزة إلا قهوة سان سوسيه الواقعة على جانب ميدان الجيزة الرئيسي، ولا يعرف من أهلها إلا زملاءه من أساتذة الجامعة. وطالت غيبة خطاب أفندي. فمن الناس من زعم أنه هاجر من الجيزة كلها وعاد ليعيش بقية حياته في قريته بالمنوفية. ومنهم من ادعى أنه يقضي عقوبة طويلة في السجن في قضية فساد. وبالرغم من غموض مصير خطاب

أفندي إلا أن المعلم كتكوت بقى محافظًا على موقفه الطيب من خطاب أفندي. وكان موقفة هذا بناء على شعور داخلي بأنه حتما سيعود يوما ما إلى الواجهة، وأن لياليه في قهوة كتكوت ستعود بالتأكيد طالما بقي خطاب أفندي على قيد الحياة.

ولكن أين اختفى خطاب أفندي؟ أهاجر إلى قريته أم يقضي أيامه في السجن أم توفي إلى رحمة الله؟ ذات صباح جاء إلى قهوة عبد الله عمدة من عمد القرى القريبة من مدينة الجيزة، وكشف عن سر اختفاء خطاب أفندي. لقد تزوج خطاب أفندي فتاة ريفية عانسا هي شقيقة شيخ قرية متيسر وأحواله المالية على ما يرام. وكان شيخ البلد قد تعرف على خطاب أفندي في إحدى جولاته في نطاق نشاط الاتحاد القومي. وتوطدت أواصر الصداقة بين شيخ البلد وخطاب، وفي إحدى الزيارات التقى صدفة بأخت شيخ البلد. كانت قريبة من عمره، ربما في الخمسين أو تجاوزتها بقليل، ولكنها بالرغم من ذلك كانت مليحة وصبية إلى جانب أنها كانت وارثة لعشرين فدانًا من أجود الأطيان. وعندما عرض خطاب أفندي على شيخ البلد رغبته في الزواج من أخته زينب، رحب الشيخ كثيرًا ولكنه طلب مهلة لاستشارتها، وتمت مراسم الزواج سريعًا، وطلب خطاب أفندي نقله من مدينة الجيزة إلى المدرسة التي تقع في زمام قرية أصهاره. وذاق خطاب أفندي طعم السعادة الحقيقية ربما لأول مرة في حياته. طعم البط المزغط والوز الغارق في شحمه مما ضاعف من متعة خطاب في الحياة لدرجة أنه فكر في الاستقالة من التدريس ليتفرغ لإدارة أعماله والاستمتاع بالحياة، ولكنه قبل

أن يقدم على تنفيذ فكرته وقع حادث من تدبير القدر جعله يصرف النظر عن تنفيذ ما عزم عليه. أقيم في القرية مهرجان سياسي كبير لقيادة الاتحاد الاشتراكي بالمحافظة وأقام العمدة سرادقًا كبيرًا لهذه المناسبة. وأقبل جميع عمد ومشايخ البلاد المحيطة لاستقبال أمين الاتحاد الاشتراكي أستاذ الجامعة الذي اكتسب شهرة واسعة قبل أن ينخرط في العمل السياسي، ولفت نظر أستاذ الجامعة حركة خطاب أفندي الواسعة وعلاقاته الوثيقة بجميع الحاضرين من عمد وأعيان الريف. وأدهشه خطاب أفندي عندما بدأ يلقي خطابه على الحاضرين، لغته سليمة ولديه مقدرة فذة على مخاطبة الفلاحين ولم يملك أستاذ الجامعة نفسه فراح يصفق بشدة عندما اختتم خطاب أفندي خطابه ببيت الشعر الشهير: قطط سود ولها ذنب.. (لا حول ولا قوة إلا بالله) هكذا هتف أستاذ الجامعة في سره بعد أن انتهى خطاب أفندي وتساءل بينه وبين نفسه: ولماذا يبتعد هذا النوع عن العمل السياسي، ولماذا لا يوجد رجل مثل خطاب أفندي في قيادة الاتحاد الاشتراكي بالجيزة، لا بد أن هناك خللاً في تركيبة التنظيم ولا بد من إعادة النظر في هيكل التنظيم لكي يقترب أمثال خطاب أفندي من الصفوف. وبعد أيام كان خطاب أفندي يشق طريقه بصحبة صهره شيخ البلد إلى مدينة الجيزة لمقابلة أمين الاتحاد الاشتراكي، ولكنه لم يشأ أن يذهب إليه مباشرة، قصد أولاً قهوة كتكوت ليستريح قليلاً ويشرب كوبًا من الشاي. ولكي يبشر المعلم كتكوت بعودته إلى سابق عهده، ويطمئنه بأن الأحوال ستعود كما كانت، وربما أفضل مما كانت.

شعر المعلم كتكوت بالزهو؛ لأن تنبؤاته كلها كانت هذه المرة صحيحة وها هو ذا خطاب أفندي بلحمه وشحمه يسعى بقدمه إلى مكانه الذي شغله في كل الأحوال وغدًا ستضاء الأنوار حتى الفجر في قهوة كتكوت، ستزدحم عن آخرها بروادها من العمد والأعيان ومن الفلاحين أصحاب الحاجات، وكان الولد ريعو أكثر الجميع حركة وأشدهم سرورًا. أشرف بنفسه على إعداد الشاي الكشري لخطاب أفندي وضيوفه. وقضى وقتًا طويلاً في تنظيف الشيشة قبل أن يقوم بتقديمها إلى صهر خطاب أفندي، ورفض المعلم كتكوت تقاضي ثمن المشروبات. واعتبر وجود خطاب أفندي في القهوة هو جائزته التي لا تقدر بثمن، حتى الولد ريعو رفض الجنيه الورق الذي قدمه شيخ البلد له على سبيل البقشيش. وشعر خطاب أفندي بالارتياح، وأفرز هذا الاستقبال الحافل من جانب المعلم كتكوت وريعو نوعًا من التفاؤل في نفس خطاب أفندي. لا بد أن الحياة ستبتسم أخيرًا لخطاب أفندي ولا بد أن الاتحاد الاشتراكي سيكون مختلفًا عما سبقه من تنظيمات أو بالتأكيد لن يلقى نفس المصير الذي لقيه ما سبقه من تنظيمات. والغد سيكون يوما آخر، عندما يجلس خطاب أفندي مع أستاذ الجامعة.. ليتفقا على أسس التعاون بينهما في قادم الأعوام.

٥ـ الطيور المهاجرة!

عادت الأيام الحلوة من تاني وعاد خطاب أفندي إلى الواجهة ولكن في ثوب قشيب.. خطاب أفندي لم يعد هو الأفندي الجربان المقشف الذي عرفه الناس من قبل. ولكنه صار من الأعيان يملك أرضا في ريف الجيزة، وله أصهار يأكلون اللحمة نية، وهو لم يعد مجرد رقم في حزب السلطة، ولكنه أصبح دينامو مكتب الاتحاد الاشتراكي في الجيزة وأمين المكتب رجل مثقف وأستاذ جامعي ولكن حركته بطيئة، وعلاقته بالجماهير محدودة، وهو يجيد التفكير ووضع البرامج ولكنه لا يجيد حشد الجماهير أو تحريكها، وأصبح خطاب أفندي هو المسئول الحقيقي في المكتب، فهو همزة الوصل بين مكتب القسم، وأمين المحافظة وهو في أحيان كثيرة يجتمع مع أمين التنظيم مندوبا لأمين القسم، وأحيانا يكلفه كبار المسئولين بمهام لا يعرف أمين القسم عنها شيئًا.

اطمأن خطاب أفندي للمستقبل أما الحاضر فالحمد لله الحمد لله، لم يعد خطاب أفندي في حاجة إلى الفردة التي كان

يفرضها على المعلم كتكوت. وانقلب الحال فأصبح يغدق بشدة على «الوله ريعو» وأصبح المعلم كتكوت يبدي الاحترام الكامل لخطاب أفندي، وهو احترام نابع من قلب المعلم بسبب سلوك خطاب أفندي في الفترة الأخيرة، لقد أصاب التغيير خطاب أفندي، فأصبح يخدم الناس بدون مقابل، وأصبح يقيم الولائم بين الحين والآخر.

تبدلت الأحوال في عصر الاتحاد الاشتراكي، فلم يعد خطاب أفندي في حاجة لأن يمد يده انتظارا لمبلغ من هنا ومبلغ من هناك. لقد فتحها الله عليه من واسع. استطاع باتصالاته الجديدة أن يحصل على توكيل شركة الدخان والسجاير في المركز الذي يقيم فيه أصهاره. وخطاب أفندي ليس من الغباء لكي يحصل على التوكيل باسمه، لقد حصل عليه باسم شقيق زوجته وهو مزارع نشيط ورجل طيب مشهود له في جميع الأوساط وكان الدخل الذي يحققه التوكيل يكفي خطاب للإنفاق على أسرته، بالإضافة إلى مدخرات تكفي لشراء قطعة أرض جديدة يضيفها إلى أملاكه التي رفعته إلى مصاف كبار ملاك الريف. الاتحاد الاشتراكي هو أفضل تنظيم ثوري شهدته مصر منذ فترة طويلة، وحظ الاتحاد الاشتراكي حسن لأن أقطابه اهتدوا إلى خطاب أفندي ليكون لسان حال الاتحاد الاشتراكي وترجمانه في بلاط الشعب المصري، وبالرغم من اطمئنان خطاب أفندي للمستقبل، وشعوره بالراحة للحاضر، إلا أنه كان يعاني من قلق لا يعرف مصدره؛ لأن تجارب خطاب أفندي في الحياة أكدت له صحة الحكمة التي نطق بها الشاعر:

لكل شيء إذا ما تـم نقصـان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الحياة كما عاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان!

واستعاذ خطاب أفندي بالله من تقلب الأيام وغدر الزمان، وحاول جاهدا أن يبعد عن نفسه شر هذه الوساوس، ولكن شكوك خطاب أفندي تحولت إلى حقائق أكدتها بعض الشواهد الخطيرة، اكتشف خطاب أفندي أن هناك لقاءات سرية يعقدها أمين القسم في مكتبه بعد انتهاء العمل في المكتب وانصراف الموظفين، وتعمد خطاب أفندي أن ينصرف مبكرًا لشأن من شئونه في قريته البعيدة، ولكنه لم يذهب إلى القرية، وقضى بعض الوقت في قهوة كتكوت، عاد بعدها إلى المكتب ليجد طابورا من السيارات أمام المكتب، ودخل خطاب أفندي مسرعا وفتح باب مكتب الأمين، ويا لهول ما رآه. عشرة أشخاص على الأقل بينهم أساتذة جامعة وفلاح وعامل وأحد الشباب الذين كانوا يترددون على المكتب بين الحين والآخر. ولكن كل هؤلاء «كوم» ومحمد أفندي عبده «كوم» آخر «يا داهية دقي يا جدعان» محمد عبده بين المجتمعين.

ومن هو محمد عبده، إنه ولد صايع يعمل موظف قشرة في مصلحة الزراعة، وهو عدو من أعداء الثورة المباركة، كان في تنظيم شيوعي متطرف وقضى عدة سنوات في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات في سجن الواحات، وتردد على المعتقل بعض الأوقات وكان لا يخفي عداءه للثورة ورجالها الميامين. وقبل الثورة كان عدوا للحزب السعدي وكان يطلق عليه حزب

الأغلبية، وكم من المعارك نشبت بينه وبين خطاب أفندي من قبل. ما الذي جاء بمحمد عبده إلى هنا؟ وما هي الرابطة التي تربط هذا المحمد عبده بهؤلاء الأساتذة الأجلاء؟ اضطرب أمين المكتب عندما اقتحم خطاب أفندي خلوته مع أصدقائه. وسأل خطاب أفندي في صوت يشوبه الخجل أنت مش كنت مسافر؟ إيه اللي رجعك تاني؟ واعتذر خطاب أفندي وتعلل بأنه نسي أوراقا هامة على مكتبه، وأنه عاد ليأخذها معه ولكنه فوجئ بطابور السيارات أمام المكتب فتوقع أن يكون حادث خطير قد وقع. ولذلك جاء يستفسر من سيادة الأمين عن حقيقة الأمر. ودعاه السيد الأمين إلى الجلوس وراح يشرح له الأمر قائلا: الناس دول يا سيدي مش عاجبهم شغلنا قدموا شكوى ضدنا في الأمانة العامة، وفوجئنا بهم جايين المكتب فأردت أن أوضح لهم حقيقة موقفنا، والحمد لله إنك رجعت تاني. وأشار أمين المكتب إلى خطاب أفندي، وقال للمجتمعين: عندكو خطاب أفندي مثلا شايل هم المكتب وشغال ليل ونهار ويدون مقابل إلا الرغبة المشبوبة في خدمة الجماهير. ورد خطاب أفندي على استحياء: كله بفضل توجيهات السيد الأمين. انفض الاجتماع وخرج الجميع وذهب خطاب أفندي إلى قهوة كتكوت وجلس ساهما يفكر فيما رآه بعينيه في مكتب الأمين. إنه لم يصدق حرفا واحدا مما قاله الأمين، ولكن ما هي حقيقة الأمر؟ وما الذي جمع الشامي على المغربي في هذا الاجتماع المريب؟ وقضى خطاب أفندي عدة أسابيع بعد ذلك يراقب مكتب الأمين، وكان ينصرف أحيانا ثم يعود إلى المكتب فجأة،

ولكنه لم يضبط أي اجتماع في المكتب بعد ذلك، وبعد فترة كاد فيها خطاب أفندي أن ينسى ما حدث في تلك الليلة، غير أن الولد ريعو جاءه بخبر أشعل النار من جديد في قلب خطاب، أبلغه الولد ريعو أنه رأى رئيسه أستاذ الجامعة مع جماعة من الناس يترددون على بيت محمد عبده. يا خبر أسود ومدهون بالنيلة. السيد الأمين بذات نفسه ومعه عدد آخر من الناس يذهبون لزيارة محمد عبده، هذه من علامات الآخرة ورب الكعبة. وكان الأمين ومن معه قد اتخذوا قرارا بعد اقتحام خطاب أفندي لمكتب الأمين، أن يعقدوا اجتماعاتهم في بيت أحدهم، ولما كان بيت محمد عبده يقوم في منطقة على حافة المزارع في نهاية العمران بالجيزة، فقد قرروا عقد اجتماعات (التنظيم الطليعي) هناك. ولم يُضع خطاب أفندي وقتا في اكتشاف حقيقة الأمر. ولما كان الولد ريعو يسكن حجرة على سطح منزل مجاور لبيت محمد عبده. فقد اتفق مع ريعو على أن يتردد أحيانا إلى حجرته لأمر هام. ورحب ريعو بالفكرة. ولكن ريعو للأسف لا يكون في المنزل غالبا في الأوقات التي تعقد فيها هذه الاجتماعات. وقال خطاب أفندي لريعو وهو يدس في يده بأوراق نقدية، ولا يهمك.. أنا هابقى آخذ المفتاح وأروح هناك أقعد شوية لوحدي إذا ما كانش عندك مانع، ورد ريعو. أستغفر الله يا أستاذ، دا بيتك ومطرحك ولو أنه مش أد المقام. ونفذ خطاب أفندي مشروعه في اليوم التالي مباشرة. ومضت عدة أيام لم يحدث فيها جديد، حتى كانت الليلة الموعودة، عندما بدأ الاجتماع المشبوه، حضر نفس الأشخاص الذين رآهم خطاب

أفندي في مكتب الأمين تلك الليلة، وحضر الأمين على قدميه ممسكا في يده بشنطة تحوي أوراقا. يا داهية دقي يا ناس.. نفس الأشخاص ونفس الوجوه. ما الذي جعل هؤلاء السادة يجتمعون في مثل هذا المكان؟ ولماذا يختفون عن الأنظار؟ لقد تحققت شكوكه أخيرا، وهذا الأمين أستاذ الجامعة شيوعي بدون شك. إنها مؤامرة ضد الثورة المباركة، والولد الصايع محمد عبده سيصبح يوما ما حاكما للجيزة، مفيش كلام! وراح خطاب أفندي يستعرض علاقته مع أستاذ الجامعة أمين قسم الجيزة. أخيرا أدرك خطاب معنى هذه الكلمات التي كانت تتردد في حديث الأستاذ.. المد الشعبي والتنظيم الثوري، وأصحاب الياقات البيضاء، ومن كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته.

إنه شيوعي هو الآخر مثل محمد عبده، ولكن ما الذي ينقصه لكي يتحول إلى شيوعي؟ المسألة طبيعية مع محمد عبده، فهو جربان وشقي وتعيس، ولكن الأستاذ.. هذا هو الأمر العجيب! هل يقف خطاب أفندي مكتوف اليدين أمام هذا الخطر الداهم؟ وخصوصًا أن المسألة تخص خطاب أكثر من أي أحد آخر. لو انتصرت الشيوعية فسيموت خطاب في السجن بالتأكيد يا لها من مشكلة رهيبة ولا بد من حلها بسرعة قبل أن تقع الفاس في الراس. لم يتوان خطاب أفندي عن العمل بسرعة فتوجه ذات ليلة إلى قسم الشرطة واجتمع بعض الوقت مع ضابط المباحث وقص عليه بالتفصيل ما رآه بعينيه في مكتب الأمين. وفي بيت محمد عبده. وحرص على أن يذكر للضابط أن الدكتور أستاذ الجامعة رجل

فاضل ولكنه شيوعي بالتأكيد. ولا بد من الإسراع في مواجهة هذا الأمر الخطير. ومن أجل التأكد بأن الأمور تسير في الطريق الصحيح، حرص خطاب أفندي على البقاء في حجرة ريعو وقتا أطول على الأقل؛ لكي يسعد نفسه بمنظر القبض على هذه الفئة الضالة التي تخطط لإشعال النار في الوطن، وكان يتواجد أحيانا في بيت ريعو أثناء وجود الأخير فيه، وأحيانا يتواجد فيه بمفرده. ولما لاحظ ريعو قلق الأستاذ وعصبيته نصحه بأن يشد نفسين من سيجارة ملغومة لكي يريح أعصابه ويريح مخه الذي أرهقه التفكير. وشعر خطاب أفندي بأن السيجارة لها مفعول السحر في نفسه، فراح يطلب منها المزيد، وكان ريعو في الخدمة بأسلوب اطبخي يا جارية كلف يا سيدي! ولم يتردد خطاب أفندي في تغطية كل التكاليف. وذات مساء وقعت عينا خطاب على بنت صبية في السادسة عشرة من عمرها تقيم مع أسرتها الفقيرة في حجرة مجاورة لحجرة ريعو. كانت البنت رغم فقرها تبدو مليحة وناضجة، صدرها يترجرج في حركة مرسومة كأنه من وضع مخرج. وشفتاها مكتنزتان يتوسطهما شق يحرك شهية العابد العاكف المعتزل للحياة. واستبدت الرغبة بخطاب أفندي فنادى على البنت وهي في طريقها للخروج وتوسل إليها في أدب مبالغ فيه أن تشتري له علبة سجاير، وعندما عادت شكرها بشدة وأعطى لها فكة الجنيه، ولكن البنت استكثرت المبلغ وأصرت على إرجاعه فأطبق خطاب على كفها بكفه وأقسم بكل المقدسات أن تحتفظ بالمبلغ هدية متواضعة من عمها خطاب، لم يشعر خطاب

أفندي في حياته بهذا الشعور الذي أحس به في اللحظات القليلة التي أطبق فيها بأصابعه على كف البنت الصغيرة. واستبدت الدهشة بخطاب أفندي لهذا الشعور اللذيذ الذي لم يشعر به في أي وقت، وخصوصًا أن خطاب أفندي لم يكن له أية مغامرات من هذا النوع. وأصبح من عادة خطاب أفندي كلما رأى البنت أن يكلفها بشراء أشياء له من الخارج، ويحرص على أن يترك لها الباقي هدية متواضعة منه لخدماتها الجليلة، ولاحظ خطاب أفندي أن البنت أصبحت وهي في طريقها للخارج تحرص على أن تسأل خطاب أفندي إذا كان يرغب في شراء شيء من الخارج، ثم صارت تتحدث معه وقتا أطول. وضاعف خطاب أفندي من هداياه للبنت. حتى كان يوم جاءت إليه الأم تسأله إذا كان يرغب في تنظيف الحجرة أو غسيل ملابسه، فهو رجل كريم يستحق الخدمة التي هو أهل لها بكل تأكيد. وذات صباح جاءت الأم ومعها البنت، واستأذنت خطاب أفندي في أن يسمح لشربات بأن تقوم بكنس الحجرة التي يبدو أنها لم تكنس منذ عدة شهور.

ودخلت شربات الحجرة ترتدي جلبابا ممزقا مفتوح الصدر، وراحت تكنس الحجرة وهي منحنية في حركة متعمدة لإبراز مفاتنها، ولم يتمالك خطاب أفندي نفسه فاحتضن البنت في رفق ومسح بيده على شعرها، ثم انحنى وطبع على خدها قبلة.

لم تقبل البنت هذا السلوك ولم ترفضه. ولكنها تململت في دلع، وتركت المكنسة وانطلقت من الحجرة نافرة وراضية في

الوقت نفسه، واضطرب خطاب بشدة وخاف من عواقب فعلته، وبالرغم من ذلك شعر بأنه يكاد يطير من السرور. أخطر ما شعر به هو الرائحة التي نفذت إلى خياشيمه وتسللت إلى أعماق روحه رائحة البنت الصبية. إنها رائحة تختلف عن الروائح التي جربها من قبل مع غيرها من النساء. يبدو أن للشباب رائحة خاصة لا يعرفها إلا مجرب. ولم يستطع خطاب أفندي أن يبقى في الحجرة فغادرها مسرعا إلى قهوة كتكوت.

وأيام طويلة وكثيرة مرت دون أن يقع ما كان ينتظره خطاب أفندي، لم يقبض على أحد بينما الاجتماعات تتكرر في منزل محمد عبده. تصبح مصيبة كبرى لو أن ضابط المباحث متواطئ هو الآخر مع الشيوعيين، ولكن هذا الضابط الصغير ربما ليس في دائرة اهتماماته أمر خطير على هذا المستوى. إنه مجرد ضابط مباحث يتعقب النشالين واللصوص والبلطجية وباعة المخدرات، وخطف خطاب أفندي رجله إلى مكتب المباحث العامة. وحكى للمفتش كل شيء بالتفصيل. الكارثة الكبرى أن المفتش استمع إلى تفاصيل المؤامرة في هدوء. وقال لخطاب: سنبحث الأمر في هدوء وعلى مهل، ونصح خطاب أفندي بعدم الثرثرة في هذا الأمر مع أحد. وأضاف بأن هناك أشياء تحدث قد يخطئ الإنسان في تفسيرها، ولذلك يجب ضبط الأعصاب والتصرف بحكمة بالغة، يا خبر زي الزفت، يبدو أن البلد كلها تحولت إلى الشيوعية والمستقبل مجهول والمصير أسود من قرون الخروب! ولكن خطاب أفندي لن يهدأ ولن يكل. ثرثر

بما يعرفه لصهره في القرية ثم عاود الثرثرة مع المعلم كتكوت والولد ريعو.

ثم راح يثرثر مع كل الناس. لقد نذر نفسه لمحاربة الشيوعية حتى النفس الأخير.

وانتشرت حكاية الشيوعية التي أشاعها خطاب أفندي. وواصل مراقبته لبيت محمد عبده ورصد الاجتماعات وكتابة تقارير عنها راح يرسلها إلى الأمين العام وأمين التنظيم ووزير الداخلية، وأصبح يقضي وقتًا أطول في حجرة ريعو. ويا هناه عندما اكتشف أن البنت شربات لم تكشف سره ولم تفضحه، وتجرأ أكثر ، حتى جاء يوم وهو مستلق فوق الكنبة التي يستخدمها ريعو كسرير، عندما دخلت البنت شربات لترتيب الحجرة، ولكنه طلب منها أن تعد له كوبا من الشاي.

وعندما فرغت من إعداد الشاي، نام على بطنه وطلب منها تدليك ظهره لأنه يشعر بأن البرد ينام في ضلوعه ويكاد يمزق عضلاته، وراحت البنت تدلك عضلات خطاب أفندي، ولكنه جذبها فجأة واحتضنها بشدة. وكاد يطير من الفرح عندما وجد استجابة من شربات وسرورا بالغا بالخطوة الجديدة.

وأصبحت عادة عند خطاب أفندي، أن يشتري الكباب والعيش والسلطة ويذهب إلى حجرة ريعو ليتناول طعام الغداء مع شربات. ثم يقضي معها وقتا طيبا قبل أن يغادر الحجرة بعد المغرب. ثم يقوم

بعد ذلك بجولته المعتادة في مكافحة الشيوعية والضرب بشدة على أيدي الشيوعيين؛ لأنه لا يضيع حق وراءه مطالب.

فقد تلقى استدعاء من أمين التنظيم. أخيرا نجحت حملته وستبدأ حركة التطهير لوضع الأمور في نصابها. عندما جلس في مواجهة أمين التنظيم اكتشف أن الأمر لم يكن كما توهم، عاتبه الرجل على خروجه على تقاليد العمل الحزبي، وأنه ارتكب جريمة التشنيع على حزب الدولة. وراح خطاب أفندي يشرح لأمين التنظيم مدى الخطر الذي تتعرض له مصر على يد بعض أبنائها الذين كرمتهم الدولة ورفعتهم إلى المناصب الكبرى، كما هو الحال مع أمين التنظيم بالجيزة دكتور الجامعة. واتهم محمد عبده بأنه سوسة تنخر في قوائم النظام لهدمه من أساسه واضطر أمين التنظيم إلى زجر خطاب أفندي بشدة ووصف حركته بأنها جنون ينبغي كبحة، وهدده بطريق غير مباشر بالعواقب الوخيمة لسلوكه الذي لا يمكن قبوله. وخرج خطاب أفندي من مكتب أمين التنظيم وقد تأكد أن المؤامرة متشعبة، وأن مصر محاصرة وأنها في الطريق إلى الشيوعية؛ ولأن المصائب لا تجيء فرادى، فقد تلقى خطاب أفندي صفعة أخرى بإلغاء انتدابه من الاتحاد الاشتراكي. ولكنه رفض العودة إلى التدريس وتفرغ تماما لعلاقته الجديدة بشربات، وللوقوف في وجه المؤامرة الشيوعية! وحاول بعض أصدقائه من العارفين ببواطن الأمور توضيح الصورة له دون جدوى. شبح المؤامرة كان مسيطرا عليه. ووجود محمد عبده هو الدليل على أن مصر مستهدفة، وأن المصير مظلم

بلا شك، واتسعت حركة خطاب أفندي فراح يقوم بزيارات للقرى المجاورة ويحذر من الانقلاب الشيوعي القادم. ثم جاء يوم أسود هز كيان خطاب وكاد يصيبه بالجنون. جاءته أم شربات أثناء تناوله الغداء مع شربات وجلست أمامه حزينة، وأبلغته فيما يشبه الإنذار بأن عليه أن يقوم بتصحيح غلطته، أن يتزوج شربات أو يواجه الحساب أمام الشرطة وفي المحاكم. ولكن خطاب أفندي تلقى الإنذار باستهانة شديدة واتهم الأم بمحاولة ابتزازه، وأنذرها بأنه رجل مسئول ويعرف كيف يحمي نفسه، وهددها بمصير مظلم إذا خطت خطوة واحدة ضده، وانقطع عن التردد على حجرة ريعو، واتفق مع ريعو على إنكار أي تردد له على حجرته وسلمه المفتاح الذي كان في حوزته. ولما كان انقطاع خطاب أفندي عن زيارة حجرة ريعو، ذهبت الأم إلى ضابط المباحث وتقدمت بشكوى تتهم فيها خطاب أفندي بالاعتداء على ابنتها القاصر شربات! وكانت فضيحة بجلاجل انتهت بحبس خطاب أفندي أربعة أيام ثم أفرجوا عنه بكفالة، وأصر خطاب على أن الاتهام باطل، وأنه مجرد رد فعل لاكتشافه المؤامرة الشيوعية التي تستهدف مصر بعلم كبار المسئولين.

ولكن إذا كان خطاب أفندي قد أصبح خارج الأسوار، فقد واجه محنة أشد من محنة السجن. رفض أصهاره أن يستقبلوه وهددوه بأوخم العواقب إذا اقترب من حدود القرية. واكتشف خطاب أفندي أنه اشترى الترام؛ لأن كل أملاكه التي اشتراها في زمام القرية كانت باسم السيدة حرمه، ولما كانت الزوجة من عائلة لها شوكة

قوية، فقد آثر الصمت وبادر إلى طلاق زوجته طلبا للأمان، وعندما فاتح ريعو بأن يستأجر غرفة أخرى بعيدا عن بيت شربات يسدد أجرها من جيبه ويسكنها ريعو بلا مقابل، رفض ريعو لأن المعلم حذره من إقامة أية علاقة مع خطاب، وقهوة كتكوت طبعا ليس لديها استعداد لاستقباله بأي حال من الأحوال. حتى توكيل شركة السجائر كان باسم صهره، وعندما حاول إلغاءه وجد صدا شديدا، وحتى مدير شركة السجائر رد عليه في التليفون من طراطيف أنفه وعامله باحتقار، واضطر إلى إنهاء المكالمة بحجة أنه مشغول بشدة وهكذا سدت جميع الأبواب أمام خطاب أفندي فانسحب في هدوء وغادر القاهرة كلها وودع الجيزة وذهب إلى شبرا الخيمة واختفى هناك عند أحد الأصدقاء.

وقبل موعد محاكمة خطاب بأيام قلائل، انقلبت أوضاع الدولة وتم إعلان ثورة مايو، وذهب جميع المسئولين السابقين إلى السجن. وأعيدت قضية خطاب مع شربات إلى النيابة من جديد لإعادة التحقيق فيها. وانتهت إلى الحفظ وعاد خطاب إلى الجيزة ظافرا، ولم تمض سوى أيام قليلة، حتى صدر قرار بحل الاتحاد الاشتراكي وإعادة تشكيله من السفح إلى القمة، وانتهت عملية تطهير الصفوف من الخونة، وصدر قرار بتعيين خطاب أفندي أمينا لفرع الجيزة في الوقت الذي غاب فيه أستاذ الجامعة ومحمد عبده وزملاؤهما خلف الأسوار وخرجت جرائد الصباح في اليوم التالي بعناوين ضخمة «عودة الطيور المهاجرة» وصورة خطاب أفندي تتصدر الصفحات وفي المساء اشتعلت قهوة كتكوت بأضواء

الكهرباء ورفعت اللافتات بشعارات الترحيب بعودة المناضل خطاب حتى عقد توكيل شركة الدخان تم إلغاؤه وأعيد تحريره باسم خطاب.. هكذا علنا وبالمكشوف.. فهذا عصر الحرية وسقوط عهد الخوف.. وفي تلك الليلة التي احتفلت فيها قهوة كتكوت بعودة الطيور المهاجرة رقص المعلم كتكوت حتى الصباح ولكن خطاب أفندي لم يشرف الحفل، واكتفى بإيفاد مندوب عنه لشكر المعلم كتكوت ومع الشكر مظروف يحوي بعض المال.

٦ـ حميدو..

كان واحدا من أشهر أهالي الجيزة بالرغم من تواضع نشأته ووضاعة مهنته. فقد قيل إن والده كان شيالا بمحطة أتوبيسات كافوري بميدان الجيزة، ولما فشل في توفير القوت الضروري لولده الوحيد قام بتسليمه إلى ملجأ البنين بالجيزة، ولكنهم رحلوه بعد فترة إلى إصلاحية الأحداث؛ لأن الملجأ خاص بالأيتام فقط ولا مكان فيه لغيرهم!

وعندما خرج حميدو من الإصلاحية كان قد أصبح شابا ولم يجد مكانا يتجه إليه إلا محطة أتوبيسات كافوري في المكان الذي قضى فيه والده أغلب فترات حياته، قبل أن يموت فجأة وهو واقف على الرصيف. ولكن مهنة الوالد لم ترق لحميدو، فاشترى صندوقا صغيرا واستقر به الحال في قهوة كتكوت يمسح أحذية المترددين على القهوة من العمد والأعيان وتجار القطن وجماعة الأدباء. ولأنه كان صاحب تجربة مريرة فقد كان يبدي للزبائن مزيدا من الأدب الزائف والخضوع الشديد مما دفع بعض الزبائن إلى تكليفه بمهام

أخرى غير مسح الحذاء. بعضهم كان يعهد إليه بتنظيف الشقة، والبعض الآخر كان يبعث به لشراء أدوية من الأجزخانة أو بضاعة من السوق وكان من الممكن أن تنحصر شهرة حميدو في نطاق قهوة كتكوت لولا أن رجلا يهوديا كان يدير أستديو سينما على بعد خطوات من قهوة كتكوت، وكان يستعين بأفراد من أهل الجيزة للقيام بأدوار الكومبارس، وفي فيلم علي بابا والأربعين حرامي أصاب الحظ حميدو فظهر في دور أحد الحرامية الذين اختفوا داخل «الزلع» الموجودة في مغارة الكنز وكان دور حميدو يتلخص في الدخول في الزلعة، وعندما يأتي العسكر، يفتحون الزلع واحدة وراء الأخرى، فإذا برز منها رأس أحد اللصوص ضربه العسكري على رأسه فيرتمي الحرامي داخل الزلعة، ولكن ضربة حظ أصابت حميدو، فكان دوره يقضي بأن يبرز رأسه من داخل الزلعة فيضربه العسكري ويرتمي داخل الزلعة، ثم يعود رأسه إلى البروز مرة أخرى فيضربه العسكري مرة أخرى فيعود إلى الاختفاء دون أن يعود مرة أخرى للظهور. وبعد عرض الفيلم صار حميدو من نجوم الجيزة حميدو راح حميدو حضر ولما كان حميدو هو بطل طلبة وتلاميذ مدارس الجيزة، فقد فكر بعضهم في استخدام حميدو بدل محمد في كتاب المطالعة، فيقال زرع حميدو وحصد حميدو وأكل حميدو وضرب حميدو إلى آخر رحلة حميدو في الحياة. واتسعت شهرة حميدو أكثر عندما ظهر في فيلم أمير الانتقام وفي دور كومبارس صامت، ولكنه كان دورا يستحق الاحترام فقد امتطى صهوة حصان وارتدى زي فارس مغوار واشترك في المعارك التي

نشبت تحت قيادة أمير الانتقام. ولكن ضربة حميدو الكبرى كانت في فيلم عريس في إسطنبول، فقد ظهر في دور خادم في سرايا الباشا وتكلم في هذا الدور عدة كلمات، وانتقل بذلك من مرتبة كومبارس صامت إلى كومبارس متكلم، واعتبر حميدو هذه النقلة خطوة واسعة على طريق النجومية شأنه شأن أنور وجدي ومحسن سرحان وبالفعل أثرت هذه التطورات على مهنة حميدو الأصلية، فاعتزل مهنة مسح الأحذية واحتفظ بالصندوق في الوقت نفسه، واستعان بشاب عاطل للقيام بمسح الأحذية لقاء نسبة معينة من الدخل وتفرغ هو لأعماله الفنية التي اتسعت فشملت المسرح أيضا. وكان يوسف بك وهبي يعرض مسرحياته كل صيف على مسرح شهرزاد بالجيزة والذي تقوم مكانه الآن سينما شهرزاد الصيفي في مواجهة كوبري عباس، وتمكن حميدو من الالتحاق بدور كومبارس في مسرحية أولاد الشوارع وعندما وجد حميدو نفسه على المسرح أمام الجمهور ومن بينهم بعض أعيان الجيزة الذين يعرفونه ويعرفهم، فكر في قطع خطوة أوسع على طريق المجد فقرر أن يشارك في التمثيل بالكلام مع أن دوره كان دورا صامتا في ثياب متسول يفترش الرصيف.

وبالفعل ألقى حميدو خطبة مقتبسا إياها من مقتطفات مختلفة من أدوار يوسف بك وهبي نفسه في عديد من المسرحيات ولما كان يوسف بك وهبي يقف على خشبة المسرح في تلك اللحظة فقد استبدت به الدهشة وتصور أنه معتوه أو مخبول، وتأكد من ذلك عندما أمره بالصمت فلم يصمت بل واصل الخطابة بطريقة

يوسف بك وهبي، مما اضطر يوسف بك وهبي إلى ضربه بالشلوت ضربة قوية أطاحت به من فوق الخشبة على كراسي المتفرجين وسببت هذه الحادثة مشكلة في الجيزة. فقد انتشر الخبر وذاع في أنحاء الجيزة بعد أن نشرته مجلة فنية واسعة الانتشار، مما دفع بحميدو إلى الدفاع عن نفسه بأن ما حدث كان نتيجة مؤامرة من جانب يوسف بك وهبي؛ لأن تمثيل حميدو على المسرح كشف يوسف بك وهبي، وأظهره كمجرد ممثل عادي إلى جانب حميدو الذي سيطر على المتفرجين ودفعهم إلى التصفيق له بشدة لمدة عدة دقائق.. ولم يكن أمام يوسف بك وهبي إلا ضربة بالشلوت لكي يقطع هذا السباق بينه وبين حميدو الذي لو استمر لكانت النتيجة في صالح حميدو بالتأكيد وراح حميدو يردد في مجالسه الخاصة وبين زبائن قهوة كتكوت. واقتنع بعض الناس بما كان يردده حميدو لدرجة أن المعلم كتكوت عرض على حميدو أن يستأجر منه بوفيه المسرح وقد وافق حميدو على الفور فطلب من المعلم كتكوت سلفة تخصم من الإيجار فيما بعد، ولكن مضت شهور طويلة وسنوات أيضا دون أن ينفذ حميدو شيئا من أحلامه، وزاد الطين بلة أن أفلام السينما التي كانت تنتج في أستوديو مزراحي المواجه لقهوة كتكوت أصبحت قليلة، وانخفضت أجور الكومبارس بسبب حرب ٤٨ في فلسطين وألقت الأحوال السيئة ظلها على حميدو، وبدأ يعاني من وقف الحال مما اضطره في النهاية إلى العودة لمهنته القديمة وقام بتسريح الشاب الذي استأجره للقيام بمسح الأحذية وراح حميدو نفسه يمارس عملية

تلميع الأحذية بنفسه وكان إذا سأله أحدهم عن سر عودته إلى مهنته القديمة برر ذلك بأن مسح الأحذية أشرف من إجباره على تمثيل الأدوار التي تعرض عليه وزعم أن المخرج محمد كريم عرض عليه دور قواد في أحد المواضيع ولكنه يفضل الجوع على القيام بمثل هذه الأدوار. ولما كانت الأمور قد تدهورت إلى هذا الحد مع حميدو فقد آثر الاختفاء بعض الوقت ولغط الناس بأنه سافر إلى فلسطين، وقال آخرون إنه ذهب إلى الإسماعيلية للعمل في معسكرات القناة. المهم أن غيبة حميدو لم تستمر طويلا، سرعان ما ظهر من جديد في قهوة كتكوت، ولكنه عاد هذه المرة ببدلة وعلى رأسه برنيطة بيضاء مصنوعة من القماش. وعرف رواد قهوة كتكوت من حميدو نفسه أنه كان في بورسعيد، وأنه عمل في معسكر بحري على شاطئ الميناء، واكتشفوا أنه ينطق ببعض الكلمات الإنجليزية. وبعد أن قضى أسبوعا في القهوة اختفى من جديد وعاد إلى بورسعيد وفي هذه المرة امتدت غيبته عاما كاملا، وعندما عاد كان ينفق عن سعة، ويدخن سجائر فاخرة قال إنه حصل عليها من النافي الإنجليزي بقروش قليلة، وعرف رواد قهوة كتكوت أنه صار موضع ثقة القائد الإنجليزي وهو ضابط برتبة كابتن، وأنه لا يتخذ أمرا إلا بعد مشاورة حميدو ومرافقته ولكن أكاذيب حميدو انكشفت كلها، عندما هبط على القهوة ذات مساء عدد من المخبرين على رأسهم ضابط مباحث، وألقوا القبض على حميدو وذهبوا به إلى قسم الشرطة. ثم عرف أهل الجيزة أن حميدو قدم للمحاكمة وأنه أدين في جريمة سرقة

المعسكر الإنجليزي، وحكموا عليه بالسجن لمدة سنتين. نسي الناس حميدو وساعدهم على نسيانه أنه لم يعد إلى الجيزة بعد خروجه من السجن، ولكنه ذهب مرة أخرى إلى بورسعيد وقيل إنه تزوج من بنت بورسعيدية واستقام هناك وعمل مع أخيها البمبوطي على قارب في الميناء وقيل إنه حصل على باسبورت بحري وأنه سافر على ظهر مركب ترفع علم هونج كونج. ولم يظهر له أثر بعد ذلك إلا بعد النكسة، عندما عاد إلى قهوة كتكوت واستقر فيها زبونا فقط بلا عمل من أي نوع ونصحه البعض بالعودة إلى شغلته القديمة ماسح أحذية، ولكنه قال بأنه يفكر في مستقبله ولم يستقر رأيه على عمل معين بعد. ثم جاء ذات مساء إلى القهوة لتوديع المعلم كتكوت والجرسون ريعو، وكان معه جواز سفر مصري وتذكرة سفر على الطائرة وتأشيرة دخول لليونان.

وسافر بالفعل إلى اليونان ولكنه غاب عدة أشهر طويلة قبل أن يظهر من جديد، واكتشف الناس أن البوليس اعتقله في المطار؛ لأن جواز السفر كان مزورا وتأشيرة دخول اليونان أيضًا. وكانت آخر مرة وقع فيها بصري على حميدو في إحدى أمسيات مايو الحارة من عام ١٩٧١.

ولم أره بعد ذلك لعدة أعوام طويلة، ولكن بسبب غيابي والحمد لله خلف أسوار السجن، وعندما خرجت من السجن اكتشفت أنه يعمل تاجر شنطة، وأنه دائم الترحال بين القاهرة وبيروت. وغاب العبد لله عشر سنوات كاملة خارج مصر، وعندما عدت كان حميدو

يدير محلا صغيرا في الميدان يعرض فيه ما يهرب به من بضائع من لبنان. وعندما جاء ليهنئني بالعودة كان يرتدي بدلة صيفي فاخرة صناعة لبنانية وكرافتة من الحرير الفاخر، وحذاء إيطاليا، وكان سعيدا وقلقا على نحو ما، وهمس في أذن العبد لله بأن السر وراء القلق الذي يستبد به أنه اقترض عدة ألوف من الجنيهات من البنك، ثم تعثر في السداد، والبنك يهدده برفع الأمر إلى القضاء. وقيل إن حميدو تغير كثيرا، وإنه يتردد على المسجد للصلاة في المواعيد المحددة، وإنه يصوم رمضان، ويؤذن أحيانا لصلاة الفجر في المسجد المجاور للمحل الذي يمتلكه. ثم تأكدت لي هذه الحقيقة عندما شاهدته ذات مرة على قهوة كتكوت يجلس مع بعض أصدقائه، وقد أطلق لحيته. يا سبحان الله... صار حميدو بين المشايخ كما صار شولح بين الأنبياء، مع فارق بسيط هو أن الناس في غزة تعجبت لدخول شولح بين الأنبياء، ولكن أهل الجيزة لم يندهشوا لدخول حميدو بين المشايخ!

وذات مساء وكان الجو خريفا وثمة ريح باردة تهب على الميدان، فوجئت بحميدو يحضر إلى مجلسي ليس للسلام، ولكن لمناقشة مشروع تجاري مضمون الربح، وقال حميدو في لغة رجل الأعمال:

أنت قضيت عشر سنين بره، وطبعا الشغل بره غير الشغل هنا، وأنا عارف إنك راجع ومعاك لا مؤاخذة قرشين. إيه رأيك إحنا داخلين مشروع تجاري إنما سمين قوي، وأنا معايا شركاء جماعة

من مصر بس شغالين في الكويت. والشغلانة بسيطة.. القرشين اللي معاك ع القرشين اللي معانا، وعلى قرشين من البنك كمان، وهنعمل شركة كبيرة لتوظيف الأموال.. وعلى فكرة.. الجماعة اللي معايا همه السبب في العز اللي عايش فيه الجماعة اللي عندهم شركات من النوع ده؛ لأنهم كانوا زملا مع بعض في الكويت.

وسألته.. وكيف ستقوم بتوظيف الأموال؟ فقال على الفور...

ـ أنا قدامي شغلة عارفها ودارسها. أنا بدل ما روح بيروت لوحدي، وأجيب معايا شنطتين، هاروح ومعايا كام عيل من بتوع الجامعة دول، ونرجع ومعانا عشرين شنطة. وهناخد دكان تاني كبير قوي وهنعرض فيه الحاجة، والبضاعة هتمشي زي الإكسبريس، وآخر كل شهر نوزع قرشين على الناس والباقي في جيبنا، حاجة مضمونة زي الساعة السويسري.

وسكت فترة قبل أن يقول:

ـ إيه رأيك؟

ـ المسألة دي عاوزة دراسة، وماقدرش، أحكم عليها بالشكل ده وبعدين...

ولكن حميدو قاطعني فجأة قائلا:

ـ ما تخافش، خللي قلبك جامد، التجارة تحب الشجاعة. وبقولك دي حاجة مضمونة زي ورقة البوسطة.

وظهر الغضب الشديد على وجه حميدو عندما قلت له:

- وكمان أنا ما معييش فلوس زي ما انت فاهم، وأنا كنت عاوز أدرس المشروع عشان مصلحتك.

وقال حميدو وهو يهم بالوقوف.

- على كل حال أنا قلتلك عشان مصلحتك، لكن انت حر، وأنا عملت اللي علي وربنا عالم، وبيني وبينك ناس كتير بتتحايل علي عشان تشاركني بس أنا مش ممكن أشارك أي حد، وأنا اللي اخترتك من دون الناس اللي قاعدين ع القهوة.

ومضى حميدو غاضبا، ولم أره مرة أخرى قبل عدة شهور، وكانت أحواله قد تطورت بشكل خطير.

٧- حميدكو للاستثمار!

عدت إلى الوطن بعد رحلة علاج استغرقت عدة شهور، ولفت نظري عند ذهابي إلى قهوة كتكوت في المساء وجود لافتة ضخمة أعلى القهوة تحث المواطنين على المساهمة في «حميدكو للاستثمار»، وحرص أصحاب اللافتة على التأكيد بأن «حميدكو» تحقق أهداف الوطن في الثورة الزراعية وفي الأمن الغذائي وفي اكتشاف كنوز أرض الفيروز. واكتشفت أن حميدكو هو حميدو نفسه ولكن أضاف «كو» إلى اسمه تمشيا مع النظام العالمي الجديد! وتمنيت أن أعرف مصدر الفلوس التي ساعدت حميدو على إقامة هذا الصرح الاقتصادي الكبير. ومعرفة شركائه في المؤسسة التي تعمل على تحقيق أهداف الوطن في كل هذه المشروعات القومية الكبرى. ولم أستطع أن أظفر بأية معلومة ولو ضئيلة من الولد «ريعو» ثم من المعلم كتكوت، كان تعليق ريعو عندما سألته.

ـ حميدو عبر يا بيه!

أما المعلم كتكوت فكان جوابه:

- يعطي من يشاء بغير حساب.

ولكن «الصدف» وحدها أتاحت للعبد لله فرصة إلقاء نظرة على الحقيقة.

كان مساء باردا ومطيرا مما اضطرني إلى مغادرة الرصيف والاحتماء من الجو في داخل القهوة. وما إن دخلت حتى هب أحد الحاضرين واقفا ضاربا تعظيم سلام بطريقة رجال الأمن. يا قوة الله، عم عبد الهادي!! فين أراضيك؟ وانتحيت به جانبا وجلسنا نتحدث معا. عم عبد الهادي رجل طيب من أهالي الجيزة، عمل فترة من الوقت سائقا بشركة الترام، ثم اضطر إلى التقاعد بعد حادث أدى إلى إصابته بعجز في ساقه، وترك العمل بعد أن حصل على المكافأة والتعويض، وعلق فاترينة سجاير على أحد الجدران بجوار قهوة كتكوت، ولكنه لم يصبر طويلا على بيع السجاير الفرط، وسرعان ما باع الفاترينة واكتفى بالجلوس على قهوة كتكوت. وكان أحيانا يجلس مع شلة الأدباء على أساس أن بينه وبينهم صلة ما، فقد كان لعم عبد الهادي بنت متمردة خرجت من طوعه، وعملت «كومبارس» في الأفلام، ولما كانت البنت مليحة وعلى جانب من الجمال فقد استطاعت أن تخرج من دائرة الكومبارس لتؤدي أدوارا ثانوية، وكانت تلعب دور البنت اللعوب بجدارة، مما سمح لأهالي الجيزة بترديد اسمها في إشاعات عن سلوكها، قد يكون لبعضها أساس في الحقيقة، أما أغلبها فكانت من نسج خيال العامة

والفقراء.. ولما سألت عم عبد الهادي عن ابنته، روي لي أنها تزوجت منذ فترة من واحد «ريجيسير» وأنجبت منه بنتا، ثم هجرته بعد أن اكتشفت أن الريجيسير إياه لا يستخدم البنات في أفلام السينما فقط، ولكنه يستخدمهن في أعمال أخرى شائنة. ولكن عم عبد الهادي اكتشف بعد فترة أن خلاف ابنته مع الريجيسير لم يكن للشرف دخل فيه، وأن الخلاف حول توزيع الأرباح. وبدأت البنت تدير أعمالها بنفسها بعد الطلاق، ولما انكشف أمرها ألقت الشرطة القبض عليها وأرسلتها لمدة ثلاث سنوات خلف القضبان، وماتت زوجة عبد الهادي بعد انتشار الفضيحة، وسلمت ابنته طفلتها لبعض معارفها، ولكنها ماتت بعد فترة، وخرجت البنت من السجن بعد قضاء مدة العقوبة وباشرت أعمالها على الفور، علمتها التجربة القاسية دروسا جديدة، فلم تعد تبيع نفسها ولكنها راحت تتاجر بالأخريات، أما هي فقد أصبحت تصطاد فرائسها من بين الأثرياء الجدد. وأوقعها حظها في الولد حميدو ـ هكذا نطق عم عبد الهادي الاسم ـ ثم قال وهو ينظر للعبد لله.

ـ فاكر الواد حميدو اللي كان بيمسح الجزم في القهوة. سبحان الله.. حكمته واسعة، بيمد للظالم، الواد بقى من أصحاب الملايين. إزاي؟ هو ده اللي هيجنني، البنت اشتغلت مع حميدو كام شهر وبعدين اتجوزها. عربيات إيه يا أستاذ شقق إيه وشاليهات إيه وسفر بره إيه، حاجات زي اللي بنشوفها في السينما. وشوف البجاحة بتاع الواد، بعد الجواز بعتلي رحت قابلته، قال إيه.. عاوز يشغلني عنده.

ـ يشغلك إيه يا عم عبد الهادي، هوه بيبيع إيه؟

ـ بيبيع مرشيدش وبيبيع درة وفول بيجيبهم من بره، وبيبيع عجول وأراضي وبيشتري دولارات، وبعيد عنك طول الليل سهران يسكر ويلعب قمار، واللي هيجنني إن ربنا بيمد له الحبل وبيعطيه من واسع، وبعدين مش مكفيه يضحك على الناس، كمان بيضحك على ربنا، تصدق يا أستاذ.. عمل دقن طويلة وطلعتله زبيبة في جبهته!!

هذا إذن هو سر حميدكو، جمع المجد من أطرافه، جمعت الشركة بين حميدو والبنت حلاوتهم التي اشتهرت في السينما باسم زيزي، ويبدو أن البنت كان لها نفوذ قوي على حميدو، فسرعان ما ظهر في الجيزة سوبر ماركت حديث باسم سوبر ماركت زيزي، وكما أصبح حميدو من رجال الأعمال، صارت زيزي من ستات الأعمال، وأصبح الأستاذ حديث أهل الجيزة.

ذات مغربية همس الولد كتكوت في أذني بأن سيدة في سيارة خارج القهوة تريد أن تقول لك شيئًا هاما، ولكنها تخجل من دخول القهوة. ونهضت بسرعة وعندما اقتربت من السيارة وجدت داخلها سيدة أنيقة تضع على وجهها أصباغا بطريقة توحي أنها راقصة أو ممثلة إغراء، وابتسمت ابتسامة رقيقة واعتذرت عن الطريقة التي استدعتني بها. وقالت:

كان لا بد أن أراك وأتكلم معك، أنا والدي كان دايما بيتكلم عنك ومعجب بك، وع العموم إحنا مش هنعرف نتكلم هنا، تسمح تتنازل وتشرب معايا فنجان قهوة.

سألتها:

- فين؟

قالت بسرعة:

- في كازينو شهريار على البحر.

ثم قالت:

- مش ها عطلك يا دوب فنجان القهوة بس.

صعدت إلى العربة وجلست بجوارها، وأشارت هي للسائق بالإسراع إلى كازينو شهريار. بمجرد دخولنا الكازينو أبدت امتعاضا شديدا للحالة البائسة التي وصل إليها الكازينو، قلت لها:

- دا حاله كده من زمان.

قالت وهي مشمئزة:

- فعلا أنا بقالي عشر سنين ما جيتش هنا.

عقبت على كلامها قائلا:

- بس دا بقاله كده أكثر من كده.

ابتسمت ابتسامة جميلة وقالت وهي تغمز بعينها:

- أنا مش عجوزة قوي كده.

وحول ترابيزة متهالكة عليها مفرش كله ثقوب وبقع سألتها:

- أنا ما تشرفتش باسم سعادتك.

قالت بصوت أنثوي رقيق:

ـ يا خبر.. أنا مدام حميدو رجل الأعمال.

ـ أنت مدام زيزي بالتأكيد.

ـ كان والدي يصفك بأنك يقظ دائما لا تفوتك شاردة أو واردة.

دققت النظر فيها، كانت ترتدي بلوزة بلون الفضة مفتوحة عند الصدر أكثر مما ينبغي، وجوب أسود ميني جيب، كاد يختفي بعد أن جلست وكشفت عن سيقان نموذجية، وأوراك كمواسير مدافع تنادي ـ على رأي ناظم الغزالي ـ على عاصي الهوى الله أكبر!! بادرتها قائلا:

ـ أنا تحت أمرك.

ـ العفو يا أستاذ إحنا كلنا اللي تحت أمرك.

ثم قالت بعد أن أصلحت فتحت البلوزة ففتحتها أكثر.

ـ الحقيقة الحاج حميدو كان عاوز يكلمك بس انكسف، لكن محسوبتك بقى في الحق ما تنكسفش، وإحنا عاوزينك في خدمة.

ـ يا ريت أكون أقدر عليها.

ـ دانت تقدر على المستحيل.

كان الجرسون قد أحضر فناجيل القهوة فرشفت رشفة ثم قالت:

ـ إنت عارف أعمالنا توسعت قوي، والشركة بقت شركة محترمة وبتشتغل في حوالي ١٠٠ مليون.

ثم تناولت رشفة أخرى من الفنجال وقالت:

ـ الحقيقة إحنا بنشتغل بإدينا وسناننا، بس إحنا لازم نقول الحق، الحكومة دي بتشجع اللي عاوز يشتغل، إحنا صحيح مديونين للبنك لكن الحمد لله بنسدد أول بأول، والمكاسب الحمد لله كتير وخير ربنا مغرقنا.

ـ وأنا مطلوب مني إيه؟

ـ إحنا فكرنا نعمل قسم للدعاية في الشركة، قلنا سيادتك أحسن واحد يمسكه، القسم دا هايبقى إدارة كبيرة قوي، وانت اللي هتختار الناس اللي يشتغلوا معاك وتحدد رواتبهم كمان.

قلت على الفور:

ـ يا ريت كنت أقدر.

ـ لأ عشان خاطري، دا أنا عشمي فيك كبير قوي، دا أنا من زمان نفسي أتعرف عليك، نفسي أعرف شخصية عقلها كبير زيك كده.

ـ أنا يا ستي كان على عيني وراسي،وأنا باشتغل بقالي أربعين سنة، لكن عمري ما أعرف حاجة عن الدعاية والإعلان، أنا في الحقيقة باكتب الكلمتين بتوعي وبس.

ـ طيب بلاش تاخد قرار دلوقت، خد وقت.. فكر وبعدين قول.

سكتت زيزي عدة ثوان قبل أن تقول:

ـ طبعا عاوزة أقولك للعلم بس إن مرتب الوظيفة ٦٠ ألف جنيه في السنة.

دفعت ثمن القهوة وركبنا السيارة التي توقفت بنا أمام القهوة، وقبل أن أغادرها صافحت زيزي، فغمزتني في كفي وقالت:

ـ عاوزين نقعد مرة نتكلم في حاجة ثانية غير الشغل.

مرت أيام كثيرة أنستني كل ما دار في مقابلتي مع زيزي. ولكني فوجئت ذات مساء بالحاج حميدو يدخل القهوة ويتلفت حوله، وعندما رآني اندفع نحوي بقوة وصافحني بحرارة، ولاحظت أن «دقنه» قد طالت عن ذي قبل، وأن أصابعه تمسك بمسبحة طويلة غالية الثمن، وعندما قلت له ملاحظتي عن المسبحة تركها وأقسم بالله العظيم أنها لي ولن يستعملها أحد غيري. حاولت الاعتذار ولكني لم أفلح. قال الحاج حميدو:

ـ حد يرفض سبحة.. دا حتى حرام. هو أنا من غير مؤاخذة باديك بدلة ولا بالطو، دنا باديك حاجة بتاعة ربنا.

جلس الحاج في مواجهتي ثم قال:

ـ إيه الحكاية؟ الحاجة زيزي طمنت قلبي وقالتلي عالمقابلة مع سيادتك، وبعدين يا سيدي أنا عرضت عليك شركة معايا وأنت ما رضيتش، قلت نستفيد بعلمك، دانت راجل كل الناس تعرفك

ودماغك توزن بلد. وإذا كان المرتب مش عاجبك نرفعه وزي ما تقول:

ـ أولا المرتب المعروض أكثر من مرتب مدير بنك، وأنا عمري ما حلمت بحاجة زي دي، بس المشكلة إن أخوك ما يعرفش في الشغلانة اللي انتو عاوزني فيها. وأنا ما حبش أكدب على نفسي ولا أكدب على الناس.

ـ يا سيدي ما تدقش، إنت كفاية قعدتك عندنا، مشكلة تصادفنا، حاجة تحصل كده أو كده، تبقى معانا.

ـ إنت عارف أنا باصحى م النوم بعد الظهر، وبعدين أنا كبرت على الشغل، وعاوز أتأمل الشوية اللي فاضلين لنا.

ـ والنبي ما تكسفني، وع العموم الحاجة زيزي عازماك بكرة ع العشا، إن جيت هتطول رقبتي ويبقى كتر خيرك.

ـ هو بكره إيه؟

ـ ما تقوليش إيه وفين؟ دا الحاجة زيزي طابخة الأكل بإيديها. دنا بعت جبت بطارخ من بورسعيد النهاردة.

لا أعرف ما السبب الذي جعلني أوافق على حضور حفل العشاء مع الحاج والحاجة، ربما رغبة دفينة في رؤية زوبة مرة أخرى؟

وما زلت حتى بعد انتهاء الوقت الأصلي واللعب في الوقت الضائع تثيرني الصدور النافرة والوسط المخنوق والأرداف التي في حجم عضلات تايسون، حلقت شعري في ذلك الصباح

ومسحت حذائي، ربما لأول مرة منذ أشهر وذهبت في الموعد المحدد، وعندما ضغطت على جرس الباب فتحت على الفور، وكأن أحدا كان يراقب مجيئي من مكان ما في المنزل.. وفوجئت بالحاجة زيزي تلقي بنفسها في أحضاني، وأصابني عطرها الغالي بدوار خفيف ولكني سحبت نفسي بقوة، فقد خشيت أن يفاجئني الحاج وأنا على هذا الوضع. ولكني اكتشفت عندما أصبحت في حجرة الصالون أن الحاج ليس موجودا بالمنزل، وأنه يرأس مجلس الإدارة المنعقد في تلك اللحظة. كانت زيزي ترتدي روبا من الحرير الياباني، وتحته قميص نوم فستقي يكشف أكثر مما يستر، حاولت أن تقدم لي كأسا ولكني رفضت بشدة وتمسكت بشرب الشاي بالنعناع، يا سبحان الله، الجمال موهبة، والجميلة موهوبة كالشاعر والموسيقي والممثل والرسام، والجمال هو أعظم المواهب جميعا، ومن قال غير ذلك فهو عاجز أو قصير الذيل أو عديم الذوق أو عديم الإحساس. ولا يكفي أن تكون موهوبا فقط، بل يجب أن تكون موهبتك من أغلى قماش، ودائما هناك موهبة رخيصة وموهبة غالية، أرثر ميلر كان يبيع المسرحية بمليون دولار، والمؤلف عبد السميع الجاموسي يتقاضى مائة جنيه في المسرحية. وموهبة زيزي من نوع موهبة أرثر ميلر، لو لم تكن تعمل مع حميدو، ولو لم تكن مشبوهة لقبلت عرضها على الفور، ليس من أجل المرتب ولكن من أجل أن أستمتع بجمالها على الدوام، لا أعرف في أي شيء سرحت بعيدا، ولكني عدت إلى نفسي بعد أن شعرت بأصابعها تمسح جبهتي بمنديل ورق. واكتشفت أنني

حلقت بعيدا أثناء سرحاني، وأنني أتصبب عرقا، ضربت يدي في جيبي وأخرجت المسبحة الغالية ورحت أتمتم على صوت حباتها باسم الله. وابتسمت زيزي وقالت:

ـ أهو انت دلوقتي بقيت ألسطة على الشغل معانا، إحنا أصلنا بنشتغل بالاقتصاد الإسلامي. بس دا ما يمنعش إن الواحد يفرفش نفسه شوية، يشرب كاس، يسهر سهرة حلوة، الدنيا مش نكد على طول.

عندما بدأنا في تناول العشاء كان ارتباكي قد أصبح واضحا، وسقطت قطعة من السمك على بنطلوني فسارعت زيزي إلى المطبخ وأحضرت فوطة نظيفة وماء ساخنا وبعض مسحوق غسيل، وراحت تمسح مكان البقعة وقالت وهي تضحك ضحكة ساحرة.

ـ اللي يشوفك من بره ما يعرفش حقيقتك، أنا يتهيأ لي إنك بتمثل إنك عجوز.

قلت لها:

ـ ياللا حسن الختام.

قالت ضاحكة:

ـ ختام إيه وبتاع إيه. دا انت شباب على طول، على رأي المثل «الدهن في العتاقي».

الآن.. اكتشفت أنه لا يوجد في الحياة شيء اسمه الشيخوخة،

الإنسان يشيخ بإرادته ويظل شابا بإرادته، وهناك وسائط لا بد منها والوسائط أنواع، منها ما يجذب الإنسان إلى الحياة ومنها ما يدفع به إلى القبر، والبنت زيزي تستحق النعمة التي ترفل فيها، فهي من الوسائل التي تحفظ الحياة.. عرفت الآن لماذا احتفظ الحاج أبو هاشم بشبابه حتى عبر المائة عام. كان يتزوج كل عام هجري من فتاة في عمر الورد، ثم يطلقها بمعروف ويعطيها مما أعطاه الله. وكان يعطيها ما يكفيها لسنوات طويلة، ولذلك لم ترفض بنت من البنات طلبه في أي وقت. كان الحاج أبو هاشم يشتري الشباب والحياة بالفلوس.. ولو كانت مهنة الكتابة تدر أرباحا كتلك التي تدرها تجارة الحديد التي كان يحترفها الحاج أبو هاشم لما ترددت في اتباع أسلوب الرجل الذي عاش حتى رأى أحفاد أحفاده. عندما انتهى العشاء دق جرس الباب ودخل الحاج حميدو وفي يده سيجار كوبي شهير، وراح يعتذر عن غيابه؛ لأن مجلس الإدارة كانت أمامه عدة مشاكل لدراستها، ولم نشأ فض المجلس إلا بعد حل كل المشاكل.

سألته وأنا أعبث في حبات المسبحة:

ـ مشاكل زي إيه؟

ـ الأمر ما بيخلاش يا سعادة البيه. جايبين شحنة سمك، مركب بحالها.. يعني حاجة تأكل مصر كلها، وبعدين سعرها خفيف ومشاركة من الشركة في الأمن الغذائي، تطلع لنا بنت مفعوصة من بتوع الجامعة اللي ما بيفهموش راسهم من رجليهم، قال إيه،

السمك دا ما ينفعش للاستهلاك الآدمي، عجايب، أمال ينفع لإيه؟ هيه الحيوانات رخرة بتاكل سمك؟

ـ طيب، وهتعملوا إيه؟

ـ بكرة إن شاء الله هنبعت سيارة المدير بتاعنا لمدير البنت دي عشان يشوف لنا حل.

ـ وتفتكر هيشوف حل؟

ـ يا سعادة البيه، الناس الكبار عندهم الربط والحل، لكن دي بنت موظفة بتلاتة تعريفة تلقاها ما دقتش السمك في حياتها، يقوموا يخلوها تتحكم في رقاب الناس اللي عاوزة تساهم في الأمن الغذائي.

سكت حميدو فترة قصيرة ثم قال لزيزي، إنت هتسبيني أموت م الجوع، أو الحكاية على رأي المثل «من شاف أحبابه نسي أصحابه»؟

ضحكت زيزي واتجهت إلى المطبخ، فالتفت الحاج حميدو نحوي وقال:

ـ والناس بتقر علينا ويقولوا بيكسبوا من غير تعب، طيب واللي خلقك أنا على لحم بطني من ساعة الصبح، ياريت الواحد يرجع تاني لأيام الراحة. والفقر.

قلت له بخبث:

ـ هيه كانت أيام فقر بس لكن ما كنتش أيام راحة.

ـ عندك حق، بس الواحد كانت أعصابه مرتاحة وما عندوش قلق. سكت الحاج حميدو فترة قبل أن يسألني:

ـ اتفقت مع الحاجة زيزي، إوعى تكون كسفتها. حاولت أن أتكلم ولكنه أشار إليّ بالصمت وعاود الحديث:

ـ شوف يا سيدي، أنا عندي عرض تاني، إيه رأيك تشتغل مستشار للشركات بتاعتنا؟ أظن ما فيش حجة بقى.

قررت أن أترك المسألة معلقة، كنت أتوق إلى رؤية زيزي مرة أخرى، فقلت للحاج حميدو:

ـ دا عرض مش وحش، بس سيبني كام يوم أفكر.

عندما عرفت الحاجة زوبة بالعرض الجديد وبموقفي منه، صفقت بشدة، وقالت:

ـ ألف مبروك.

٨ـ الحاجة زيزي!

الست المُدَرّبَة زوجة حميدو أدركت أنني واقع لشوشتي في غرامها، فراحت تنصب الشباك حول العبد لله.. تليفونات بعد منتصف الليل، ثم همس بصوت مبحوح وبطريقة توحي بأنها مريضة.. سألتها ذات تليفون:

ـ إنت مالك؟

ـ عيانة ومش عارفة أنام.

ـ عيانة عندك إيه؟

ـ عندي حب، والحب يضيع ويكسر الجسم.

سألتها:

ـ وبتحبي مين إن شاء الله؟

قالت في صوت أنثوي مشحون بالرغبة:

ـ اللي مش حاسس بيه ومطنش.

ـ معقول الكلام ده، دنا عارف إن اللي بيحبوكي ما يتعدوش

ضحكت ضحكة موحية ثم قالت:

ـ العدد في الليمون، وعلى رأي المثل كلنا بنحب القمر، والقمر بيحب مين؟

وبعدين أنا مش هاضحك عليك أنت راجل عقلك يوزن بلد وأنا ورايا رجالة بالكوم، كلهم عندهم فلوس وعندهم أملاك وعندهم كل اللي تتمناه أي واحدة ست بس مش اللي أنا عاوزاه.

ـ غريبة أمال إنت عاوزة إيه؟

ـ عاوزة راجل بيفهم وعقله كبير والناس بتحترمه، مش عشان فلوسه لكن عشان شخصيته. دا اللي أنا عاوزاه.

ـ والراجل ده لسه ما جاش في سكتك؟

ـ للأسف جه في سكتي وقعدت جنبه واتكلمت معاه بس ولا هو هنا بيعاملني زي العروسة الحلاوة بتاعة المولد.

طيب ما تقوليله بصراحة..

أقول إيـه.. أنا دايبة في حبك؟ يا أستاذ: الرجالة بتحس الحاجات دي من لمسة، من نظرة، من كلمة، الحاجات دي مش عاوزة تصريح، التلميح يكفي. ثم أطلقت ضحكة رنت في أذني كزغرودة صادرة من حنجرة شابة في ربيع العمر، وقلت لها في محاولة للهروب منها قبل أن يفضحني صوتي الذي أخذ يرتعش ويتكسر بسبب محاولات المرأة المدربة على اصطياد الرجال فما بالك برجل في مثل ظروفي يزحف نحو الستين، ولم يحصل من طيبات الدنيا إلا على النزر اليسير إلى جانب ما حصلت عليه من

المطاردة والقهر والغياب وراء الأسوار عدة سنوات بالإضافة إلى التشرد خارج الحدود في بلاد الله خلق الله. قلت لزيزي تمهيدا لقطع المكالمة:

ـ إنت باين عليكي فايقة قوي النهاردة وأنا مش قدك وما نمتش بقالي يومين وحاسس إن أنا هانام وأنا باكلمك.

وردت على العبد لله قائلة في حركة شقاوة مقصودة:

ـ اللي واخد عقلك يا هناه.

ـ يا ريت كان فاضل عندي حاجة وحد ياخدها..

ـ طيب أنا هاسيبك عشان تنام بس بشرط..

ـ أنا تحت أمرك..

ـ أشوفك بكره..

ـ لا بلاش بكره..

أردت بهذا الجواب أن أبدو قويا لا أخضع للإغراء.

ـ طيب إمتى تحب؟

ـ خليها يوم الثلاثاء.

أطلقت ضحكة صاروخية من النوع الذي يحيي الموتى، وقالت في دلال:

ـ طيب ما هو بكره الثلاثاء.

قلت وأنا أتصنع الارتباك:

ـ معقول دا أنا وحياتك ناسي إحنا يوم إيه النهاردة.

ـ خلاص أنا منتظراك بكره على العشا.

لم أستطع النوم بعد انقطاع الاتصال التليفوني، الحقيقة أنني لن أستطيع الإفلات من براثن الحاجة زيزي، والحقيقة الأخرى أنني لا أريد الإفلات من براثنها، والحقيقة الثالثة أن النوم لم يعرف طريقه إلى عيوني بعد أن تحدد موعدي معها، وتأكدت أنني سأجلس إلى جوارها وأتطلع إليها وأشم رائحتها، تمنيت وأنا أتمدد على سريري لو كنت تاجرا في سوق الجملة، لو كنت فلاحا من الأعيان، لو أنني كنت منفتحا من بتوع التصدير والاستيراد، ثم أرسلت الصدف هذه المرأة في طريقي فعشت معها شهورا، أو حتى أسابيع، ثم أضع حياتي وكل ثروتي تحت أقدامها فما هو الهدف من جمع الفلوس إلا استخدامها في غرض كهذا؟ ضاع شبابنا في نظريات شديدة السذاجة عن ضرورة الالتزام إلا بما يفيد الحاضر ويحقق طموحات المستقبل. وعندما مضى قطار العمر اكتشفنا أن كل ما تعلمناه كان خطأ، وكل ما اتبعناه كان باطلا، وأن الحقيقة الوحيدة هي زيزي وما عداها فهو باطل وقبض الريح، ما أكثر الفرص التي مرت بي في حياتي ولم ألتفت إليها! ومن هو الأقدر؟ أينشتاين الذي اخترع النسبية؟ أم حميدكو الذي اكتشف أقصر الطرق لكسب الفلوس؟ وممارسة الحياة اللذيذة؟ هل أندم على الحياة التي عشتها؟ والقضايا التي اعتنقتها، والمعارك

التي خضتها، والأيام السود التي تجرعت مرارتها في المنافي والسجون.

* * *

هأنذا أخيرا في بيت حميدكو، وها هي الغندورة زيزي في الصورة التي أحب أن أراها عليها. ومن حسن الحظ أن حميدو لم يكن هناك، كان مشغولا باجتماع مجلس الإدارة وهو مجلس إدارة يختلف عن جميع مجالس الإدارات التي عرفها البشر منذ اخترع الإنسان نظام الشركات، وإلى أن تفنى الأرض ومن عليها فأحيانا تستمر الجلسة عدة ساعات في صخب شديد وصراع أشد.. وأحيانا يتكلمون جميعا في وقت واحد ولا مستمع.. أحيانا يغضب أحدهم فيشخر وينخر ويسب الأخضرين، ثم يقترب من العضو المنافس ويهبده بالدماغ أعلى أنفه، ثم ينشغل الجميع بعد ذلك بتضميد جراح عضو مجلس الإدارة، وفي أغلب الأوقات تنتهي الجلسة في المستشفى أو في قسم الشرطة وجلست زيزي ورائحة عطرها النفاذ تشع في أرجاء الحجرة، وراحت تحكي لي عن همومها، وكيف أن حميدو لم يعد يهتم بها، اهتمامه أصبح أكبر بالفلوس وبأحوال الشركة ثم قالت في أسف حقيقي:

ـ أنا زهقت من العيشة دي، أنا مش عاوزة دهب ولا هدوم ولا فسح ولا أي حاجة أنا عاوزة راجل يرعاني ويحميني وأتعلم منه.. كل قسمتي من الرجالة كانوا بيفكوا الخط بالعافية. ثم قالت:

ـ أنا صحيح ما عنديش غير الابتدائية لكن القراءة في دمي وعاوزاك تكتبلي أسماء بعض الكتب عشان أشتريها.

ونهضت على الفور وعادت معها ورقة بيضاء وقلم قدمتهما لي وجلست في مواجهتي في انتظار تحرير قائمة الكتب التي أنصح بقراءتها.

ورحت أسألها عن نوع الكتب التي تحب قراءتها فأجابت:

ـ أحب التاريخ عشان فيه حكايات حلوة ومواعظ أحسن وأحب كمان القصص والروايات اللي تملأ الدماغ.

قضيت عدة دقائق أفكر في الكتب التي أقترح عليها شراءها، وكتبت في القائمة جزءا من تاريخ الرافعي وعدة كتب للرحالة محمد بك ثابت ثم عدة روايات لإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وأمين يوسف غراب وعبد الحليم عبد الله وعندما ألقت نظرة خاطفة على القائمة قالت وهي تضحك:

ـ همة دول شوية الكتب اللي طلعوا من ذمتك.

ـ دول وجبة سريعة ولما تخلصيهم هاكتبلك تاني.

ـ وهوه إحنا بنشوفك وأنت التقل عندك صنعة.

اعتذرت لها بمشاغلي الكثيرة إلى درجة أني لم أحصل على إجازة منذ عشرات السنين ويبدو أنها لم تقتنع بما قلته فاقتربت مني أكثر وقالت.

ـ تعرف تقولي مشغول في إيه؟ وأنت بتكتب كلمتين وتبعتهم مع السواق بتاعك.

ثم أضافت:

ـ إنتو كده يا بتوع الجرائد زي أم العروسة فاضية ومشغولة ثم اقتربت أكثر وقالت:

ـ أنا عاوزاك تفضالي شوية أنا حاسة إن انا ضايعة ووحدانية ومفيش حد ورايا.

قلت لها وأنا أحاول تركيز نظارتي الطبية حول عيني:

ـ أنا تحت أمرك وفي أية فرصة تحتاجيني فيها هتلاقيني معاكي.

ـ أهو إحنا ما بناخدش منكو غير الكلام، وعلى كل حال أنا كنت عاوزاك تشتغل معانا عشان تبقى جنبي، بس أنت مافهمتش قصدي ويمكن تكون فهمت قصدي وعملت طناش.

ـ إنت عيبك الوحيد يا حاجة زيزي إن كل الناس عندك بتراوغ وتكذب.

ـ لأ يا أستاذ دا مش كدب وتقل بس.

ـ أنا يا ستي عجزت قوي على الكدب والتقل والحاجات دي.

حدجتني زيزي بنظرة فاحصة ثم قالت بدلع:

ـ أنت عجزت عيني عليك باردة وانت اللي يشوفك يقول دانت لسه ما دخلتش دنيا.

ضحكت أنا ضحكة مجلجلة ثم قلت:

ـ على رأي المثل «من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله».

ضحكت زيزي ثم نادت على الخدم وطلبت إعداد العشاء واعترضت وطلبت من زيزي أن ترجئ مسألة العشاء حتى يحضر الحاج حميدو، ولكن زيزي أصرت على تناول العشاء قبل حضور حميدو وقالت:

ـ ما أنا قلتلك حميدو اتجوز الشركة.. أنا بقالي أسبوعين ما شفتش وشه. دا حتى الصبح بيصحى بدري ويفطر لوحده ويمشي.

شعرت ببعض النفور بعد العشاء فاستأذنت في الانصراف ففوجئت بزيزي تقول في صراحة وبوضوح:

ـ إنت محتاج لتدليكة حلوة.

وضحكت أنا وقلت لها:

ـ الأسبوع اللي فات رحت النادي وخدت حمام ودلكوني لكن التعب استمر.

قالت: طيب جرب تدليكي وبعدين ابقى احكم.

ونهضت من جلستها ومدت أصابعها وراحت تدلك قفاي وأعلى ظهري وكتفي، ولا أعرف كيف شعرت براحة شديدة إلى

درجة أنني تمنيت لو أنها قامت بتدليك جسمي كله كما تمنيت أن تستمر في تدليك المنطقة التي اختارتها إلى ما لا نهاية.. صدق من قال إن النساء لسن كلهن من صنف واحد، زيزي مثلا ليست كغيرها من النساء ولو كانت من اليابان لأصبحت من فتيات الجيشا. امرأة مدربة على لقاء الرجال واستضافتهم والحديث معهم واللعب بعواطفهم وخيالهم. وهي مرتبة لا تصل إليها المرأة بالتدريب فقط ولكنها تحتاج إلى موهبة أيضا.. شعرت بالراحة فعلا؛ لأن أصابع زيزي كانت أشبه بعازف عبقري تعرف طريقها إلى المواقع التي تصدر عنها أجمل الألحان ويبدو أن زيزي رأت علامات البهجة ترتسم على وجهي فقالت تسألني:

ـ إيه رأيك بقى؟

ـ يا سلام دا إنت عملت معجزة.

ـ أمال تقول إيه لو دلكتلك ظهرك؟

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ مش ممكن ليه فيه حد قاعد معاك إنت خايف منه؟

ـ قاعد معايا فين؟

ـ في البيت...

ـ إحنا هانتقابل في البيت قريب؟

ـ إذا ما كانش عندك مانع؟

ـ لأ أنا قصدي أقول إنت حتتنازلي وتشرفيني في البيت؟

أنا مش هاتنازل ولا حاجة، أنا ها تشرف بزيارتك وكان نفسي أزورك من زمان عاوزة أشوف المكان اللي بتقرأ فيه والمكان اللي بينزل عليك فيه الوحي لما تيجي تكتب.

ـ يا ست الحسن والجمال تشرفي بس نعرف الميعاد عشان نفرش رمل في الشارع كله.

ضحكت زيزي ضحكة رقيقة لم أتمالك نفسي وفقدت توازني وتخليت عن وقاري. وتركت لأصابعي حرية العبث في شعرها، ثم تجرأت أكثر فلما قاومتني قالت لي وقد بدا عليها الغضب والتأثر لدرجة أنني لمحت دموعا في عينيها:

ـ أنت دايما بتعمل كده؟ هوه مزاجك إنك تاخد بالعافية.

شعرت بالخجل فاعتذرت عما بدر منى وأبديت لها ندمي وتعللت بأن ما حدث من جانبي دليل على شدة تأثيرها الذي أفقدني الاتزان والوقار، وهي المرة الأولى التي أخرج فيها عن شعوري إلى هذا الحد، ورسمت ابتسامة على شفتي وقلت:

ـ ما بدر مني الليلة دليل على قوة تأثيرك، فأنا ودعت الشباب منذ فترة طويلة. استأذنت وغادرت الصالون وغابت فترة، واكتشفت عند عودتها أنها استبدلت ملابسها بملابس أكثر إثارة.. كانت تمسك بين أصابعها بورقة بيضاء فولسكاب وقلم وقالت:

ـ اعمللي بقى الخدمة دي.

التقطت الورقة والقلم وقلت لها:

ـ عاوزة إيه؟ كتب جديدة؟

ردت بهدوء:

ـ لا، حميدو بك فاهم إن أنا مؤلفة وعاوزني أكتب له إعلان عن المدينة السكنية الجديدة بتاعة الشركة واسمها مدينة زمزم.

ـ زمزم مرة واحدة، وعاوزاني أكتب أقول إيه؟

ضحكت وهي ترعش حاجبيها وقالت أنا اللي حقولك برضه، أنا أقول للأستاذ الكبير، المهم تقول فيها حمامات سباحة وسوق وجناين وحديقة أطفال وسينما وملاهي وشوية كدة من البكش اللي إنت عارفه، بس اكتب إنت وأنا هانقله بخط إيدي عشان حميدو ينبسط. ووجدت في كتابة الإعلان خروجا من الورطة التي أوقعت نفسي فيها، وغادرت مقعدي وجلست على مائدة الطعام وانهمكت في كتابة الإعلان وعندما انتهيت من تحرير الإعلان سلمتها الورقة واستأذنت في الانصراف فقالت بدلال:

ـ تمشي وانت في الحال ده؟

ـ أمال عاوزاني أعمل إيه يعني؟ أنام هنا؟

ـ وفيها إيه يعني؟ ما إنت في بيتك برضه.

ثم جذبتني من يدي وأجلستني على الكنبة الفاخرة، ثم راحت تمارس معي نفس العمل الذي قامت به من قبل راحت تدلك عنقي

وكتفي وأعلى ظهري فلما اقترب وجهها من وجهي تضاعفت متعتي كثيرا عندما شعرت باستجابة زيزي، انتزعت نفسها فجأة وبقوة وراحت تسوي شعرها بأصابعها وتصلح من شأن فستانها القصير، وتصورت أنها غضبت مرة أخرى، ولكني فوجئت بدخول حميدو، وبدا عليّ الاضطراب ولكنه رحب بي بحرارة شديدة واعتذر عن تأخره بسبب انشغاله في أعمال الشركة، وخشيت أن يكون حميدو قد لمح أي تغيير في هيئتي أو على شكلي ولكني لم ألمح من تصرفاته أي دليل على ذلك وقد ابتهج كثيرا عندما أبلغته زيزي بنبأ تنازلي وقبولي تحرير الإعلان عن مدينة زمزم وقال وهو يكاد يطير من الفرحة:

يا سلام، دي هتبقى مدينة مبروكة بحق وحقيق طب تعرف سيادتك الطلبات اللي عندنا ضعف بيوت المدينة، عشان كده هنقبل طلبات الناس اللي هتدفع فوري، والناس التانيين هنطبق عليهم قانون اللي ما معهوش ما يلزموش!

ثم ضحك ضحكة طويلة ساخرة وقال:

على فكرة يا أستاذ الناس معاها فلوس زي الرز بس حطينها تحت البلاطة والناصح بقى هو اللي يخليهم يطلعوها، ثم نظر نحوي وقال:

أنا مزاجي بقى أحجزلك فيلا في المدينة، حاجة يا أستاذ زي الجنة بالضبط، وفاحتين فيها بير بيطلع ميه زي العسل، واتفقنا نعمل مصنع صغير وناويين نبيع الميه في السوق ونسميها مية زمزم إيه رأيك أحجز لك فيلا؟

ـ وبكام الفيلا يا حج حميدو؟

ـ نص مليون بس ونهار ما يكمل المشروع هتساوي الفيلا ثلاثة مليون بالميت.

عندما لم يسمع مني جوابا سألني في لهفة:

إيه رأيك أحجز لك الصبح؟

أجبته بدون حماس:

ماتعملش حاجة إلا لما أقولك.

وبالرغم من الإجهاد الذي يبدو عليه، فقد نزل معي إلى الشارع ولم يتركني إلا بعد أن انطلقت بسيارتي عائدا إلى المنزل.

٩ـ المحاكمة

ـ اسمك إيه؟

لم أتوقع توجيه مثل هذا السؤال لي، فأنا كاتب معروف منذ نصف قرن، ليس في مصر وحدها، ولكن في كل أرجاء العالم العربي. وتمت ترجمة أكثر من كتاب لي إلى اللغات الأجنبية، ولكن لا بأس، فهي تجربة على كل حال.

ـ عملك؟

* وهو يوجد أحد في الدنيا لا يعرف عملي؟

أنا الكاتب والأديب والناقد الكبير، الذي أشعلت المعارك واقتحمت الصعب، ونمت في السجون سنوات في سبيل ما أومن به، ومع ذلك لا بأس، فهي تجربة على كل حال.

ـ ما علاقتك بالمدعو حميدو؟

* لا علاقة لي به على الإطلاق، كل ما هناك أنني كنت أتعامل

معه في فترة من الفترات، فقد كان يمسح الأحذية في قهوة كتكوت وكنت أنا من زبائنها الدائمين، هذا كل ما هناك.

ـ ولكني أسألك عن علاقتك به الآن بعد أن صار من كبار رجال الأعمال وأصبح نجما من نجوم المجتمع.

* لا شيء على الإطلاق، كل ما هناك أنه جاء ذات مرة إلى القهوة وحدثني في شأن شركته التي على وشك إنشائها وعرض عليَّ أن أشاركه في مشروعه، واندهشت جدا لهذا العرض، وفكرت في أن أرده ردا عنيفا، ولكن صرفته بهدوء وانتهى الأمر.

ـ ألم تحضر لك زوجته وذهبت معها إلى كازينو شاطئ النيل وعرضت عليك الاشتراك في المشروع؟

* أظن أنه حدث شيء من هذا.

ـ تظن أم حدث بالفعل؟

* حدث بالفعل.

ـ وماذا كانت النتيجة؟

* صرفتها بمعروف أيضا واعتذرت لها.

ـ ولماذا وقع الاختيار عليك أنت بالذات للمشاركة في هذا المشروع؟

* لا أعرف ولا أدرك نواياهم الحقيقية في هذا العرض المشبوه.

ـ لماذا وصفت العرض بأنه مشبوه؟

* لأن شخصا مثل حميدو كان لا بد أن يعلم أنني لن أقبل الاشتراك معه في أي عمل مهما كانت الظروف.

- ولماذا لا تقبل الاشتراك في مشروع حميدو وهو عمل تجاري مشروع؟ هل أنت ضد الانفتاح؟

* أنا لست ضد الانفتاح ولا مع الانفتاح، وأرى أن هذا الانفتاح، أفاد مصر من بعض النواحي، كما سبب لها الضرر في نواح أخرى.

- ما هي أوجه الضرر وأسبابها؟

* لأن الانفتاح سمح لبعض الشوائب من شاكلة حميدو للظهور على قمة المجتمع عن طريق قروض هائلة من البنوك لإنشاء شركة توظيف أموال، مع أنه لا يفهم في شيء إلا مسح الجزم.

- ولكن هناك الكثير من ملوك التجارة والمال بدءوا حياتهم بأعمال تافهة مثل حميدو في مسح الجزم وتوزيع الجرائد وغسيل الصحون والمطاعم.

* هؤلاء ظهروا في مجتمعات تختلف كثيرا عن مجتمعنا، فهناك طلبة في جامعة أوكسفورد يعملون في غسيل الصحون وهناك طلبة في جامعة هارفارد يقومون بجمع الزبالة. ومقارنة حميدو بهؤلاء ليست من المنطق في شيء.

- أنت تقول إنك رفضت الاشتراك مع حميدو رغم أنه عرض عليك العمل معه، وأيضا السيدة زوجته.

* نعم، هذا حدث.

ـ لماذا عدت وقبلت العمل معهم بعد ذلك؟

* أنا لم أقبل العمل معهم في أي وقت.

ـ ألم تذهب إلى بيت حميدو أكثر من مرة؟

* نعم ذهبت مرة في زيارة خاطفة، ولم أمكث هناك إلا فترة قصيرة من الوقت.

ـ قررت زوجة حميدو أنك قمت بزيارتهم في المنزل ثلاث مرات وقضيت السهرة هناك وتناولت معهم طعام العشاء.

* أنا لا أتذكر عدد المرات، ويخيل إليّ أني ذهبت مرتين وأنني تناولت العشاء مرة.

ـ ما سبب قيامك بهذه الزيارات إذا كنت قد رفضت العمل معهم، وأنك لا تعرف حميدو إلا كماسح أحذية في قهوة كتكوت؟

* في الواقع أنا ذهبت إلى منزله تحت إلحاح السيدة الفاضلة زوجته لدرجة التوسل، وتصورت أنها تريدني في مسألة إنسانية تخصها، ولذلك قررت الذهاب إلى المنزل.

ـ زوجة حميدو قررت أنها أقنعتك في تلك الزيارات بالاشتراك معهم؟

* هذا محض افتراء. لقد زرتها بالفعل وقضيت معها بعض الوقت. كان لديها مشكلة وسألتني النصيحة وهذا كل ما في الأمر.

ـ هل تذكر هذه المشكلة التي كانت تعاني منها؟

* لا، لا أذكر الآن.

ـ ولكنها تقول إنك وافقت على الاشتغال معهم وبراتب شهري قدره عشرة آلاف جنيه وأنك أديت بالفعل بعض الأعمال.

* هذا محض افتراء وكذب صريح.

ـ طيب.. ما رأيك في هذه الورقة؟

وأخرج من مكتبه ورقة وقدمها للأستاذ.

ـ ما هذا؟

ـ هل هذا خطك؟

أخرج الأستاذ نظارته الطبية من جيبه وثبتها على أرنبة أنفه وتفرس في الورقة ثم قال:

* ما هذا؟

ـ أنا الذي أسألك وعليك أنت الجواب، هل هذا خطك؟

* الواقع لا أستطيع أن أقطع بأنه خطي من عدمه، ولكن الذي أذكره أنها طلبت مني فيما يشبه التوسل أن أكتب لها صيغة إعلان لأن حميدو طلب منها ذلك، باعتبارها قطعت مرحلة من مراحل التعليم، ولما كانت غير مستعدة وغير قادرة وغير مؤهلة، فقد طلبت مني إنقاذها حتى لا يغضب منها حميدو، وأظن أنني كتبت لها الإعلان لكي أنقذها من ورطتها.

ـ وهل من عادة أستاذ كبير مثلك أن يقبل كتابة مثل هذه الأعمال التافهة إذا توسل إليك أي أحد؟

* في الواقع أن الليلة التي سهرت فيها معها كانت لها ظروف خاصة، فقد كنت أشعر بضيق لوجودي في هذا المنزل، ولم يكن زوجها حاضرا فشعرت بالقلق، وخشيت أن تكون هذه الزيارة هي أحد ألاعيب حميدو لتوريطي في أمر ما، وقبلت أن أكتب لها هذا الكلام لكي أتمكن من الخروج ومغادرة المنزل.

ـ قرر حميدو أنه حضر متأخرا إلى المنزل بعد حضوره اجتماعا لمجلس الإدارة ووجدك هناك مع الحاجة زيزي، وكنت مرتاحا ومطمئنا، بدليل أنك جلست معهما حتى ساعة متأخرة من الليل.

* في الحقيقة أنا لا أذكر شيئًا الآن من تفاصيل هذه السهرة، وما قررته الحقيقة بعينها.

ـ ما رأيك في أننا ضبطنا في أوراق الشركة اسمك في كشف المرتبات ومثبت أمامه أنك تتقاضى عشرة آلاف جنيه في الشهر؟

* هذا اختلاق وتزوير؛ لأنني لم أتقاض مليما واحدا منهم.

ـ ولكن حميدو وزوجته الحاجة زيزي ذكروا في التحقيق أنك تقاضيت مرتب سنة كاملة تحت الحساب.

وهنا ثار الأستاذ وضرب المائدة بكفه وصرخ بأعلى صوته.

* أنا رجل شريف ولم يدخل جيبي مليم واحد من هذه الشركة

أو من غيرها، وأنا مدين واسألوا البنك الذي أتعامل معه، ولو كنت من هذا النوع الرخيص لجمعت الملايين.

وحاول المحقق أن يهدئ من ثورة الأستاذ وقال:

ـ كل ما أسعى إليه هو إظهار الحقيقة، ويهمنا أن نبرهن على أن صفحتك بيضاء من غير سوء، فأنت من رموز الأمة وأحد ضمائرها الحية، ولكنا نريد إظهار الحقيقة، ولسنا في خصومة مع أحد.

وطلب المحقق فنجان قهوة للأستاذ، ولكن الأستاذ اعتذر، كما اعتذر عن استمرار التحقيق وطلب تأجيله إلى وقت آخر واستجاب المحقق لطلب الأستاذ على الفور، وأمر كاتب النيابة بإغلاق المحضر في ساعته وتاريخه على أن يستأنف التحقيق بعد أربعة أيام.

وانصرف الأستاذ وهو لا يكاد يرى الطريق تحت أقدامه، كان مضطربا وعصبيا وشديد الغيظ. كيف استطاعت الحاجة زيزي الإيقاع به على هذا النحو، وهل هو ساذج إلى هذا الحد، لقد قضى عمره كله مهموما بقضايا الوطن، فكيف وصل به الحال إلى استدراجه إلى هذا الفخ بتدبير ماسح أحذية وزوجته التي كانت قطاعا عاما على أرصفة القاهرة في يوم من الأيام؟ وهل الرأسمالية متوحشة إلى هذا الحد، لا ترعى حرمة ولا تعمل حسابا لكائن من كان؟

ولكن حميدو وزوجته ليسا من الرأسماليين، إنهما مجرد زبالة، والسقوط في هذه الهاوية كان بسببه هو وليس بسبب الآخرين،

لقد خانته شيخوخته، ولعبت بأعصابه المرأة الفاجرة زوجة حميدو وقادته إلى مصرعه بفضل بعض الحركات التي ذكرته بشبابه الذي ولى منذ زمن طويل، المأساة أنه نسي نفسه وتوهم أنه فارس مغوار وأنه محل رعاية واهتمام ومطاردة زيزي ولكن هل يلوم الحاجة زيزي؟ لقد كانت البنت تقوم بدور مرسوم في مسرحية من تأليف حميدو، وأتقنت دورها إلى الحد الذي جعل الأستاذ يتخيل أن زيزي تقوم بدور حقيقي على مسرح الحياة، وهذا ما أضعفه عندما وقع في الفخ بهذه السهولة. إن ما حدث له ليس فضيحة فقط ولكنها فضيحة ومأساة، فهو مرتش قبل مائة وعشرين ألف جنيه، لقد كان يتوقع خلال حياته الطويلة أنه سيقع في فخ من هذا النوع، ولكن تقديره أنه كان سيقع في الفخ نتيجة تدبير محكم من أجهزة مدربة على مثل هذا العمل، ولكنه وقع أخيرا في الفخ بسبب مؤامرة من تدبير ماسح أحذية سابق في قهوة كتكوت وزوجته التي كانت تعرض لحمها الرخيص على أرصفة القاهرة، وأوقعت من؟

الكاتب الجهبذ والمفكر الكبير والناقد الذي يخشى قلمه كل الأدباء. وصل الأستاذ إلى منزله وألقى بنفسه على مقعد في الصالون وراح يدخن السيجارة تلو السيجارة، كان مهموما بحق، وكان يشعر بالنار تأكل قلبه وعقله، ماذا يمكن أن يفعله الآن لكي يمسح وصمة العار هذه من تاريخه، لا شيء يمكن أن يمحو هذا العار إلا قتل حميدو وزوجته، ولكنه لو فعلها ستكون الفضيحة أكبر وأعم، وسيعلم الجميع أن الأستاذ الخطير سقط في فخ ماسح

الأحذية، يالها من نكتة بايخة، ولكن سيضحك لها الجميع، وهو يذكر الآن يوم وقع في قبضة الإنجليز وقادوه إلى معسكر اعتقال في منطقة فايد، ولمح الغدر في أعينهم، ولكنه لم يهتز لحظة واحدة، ويذكر أيضا يوم أخذوه إلى معسكر الاعتقال في الصحراء الغربية وكيف أهانوه وعذبوه ومع ذلك لم يهتز لحظة واحدة، ويذكر أيضا يوم حاكموه أمام محكمة عسكرية استثنائية وحكموا بإعدامه وخفف الحكم بعد ذلك إلى الأشغال الشاقة، ومع ذلك لم يهتز لحظة واحدة، ها هي الأيام تدور به ولا يجد مخرجا لورطته الحالية إلا بقتل هذا الكلب حميدو والسيدة حرمه.

ولكن يستحق ما جرى له وما سوف يجري عليه. كان ضحية ماسح أحذية، ولكن هل صحيح أن حميدو ماسح أحذية؟ لقد ضحك على الناس وضحك على البنوك وضحك على الدولة.

واستدرج الأستاذ إلى فخ لا يجيد نصبه إلا الأبالسة والشياطين. هل هو صحيح ماسح أحذية؟ أم هو ملك المرحلة وفيلسوف الوقت ومفكر الزمان. ونام الأستاذ على مقعده، وفي الصباح كان نعيه يحتل الصفحة الأولى من كل الجرائد الكبرى وكل الجرائد الصغرى. مات الأستاذ بعد حياة حافلة أمضاها في خدمة الفكر والأدب والكتابة، وعاش حياته في خدمة قضايا الوطن ومات من أجلها!!

١٠ـ ابن الدايرة!

عندما جاء سعد توفيق إلى قهوة كتكوت لأول مرة في حياته كان في الثامنة عشرة من عمره، وكان قد انتهى من دراسته الثانوية واستعد لدخول الجامعة ودراسة المحاسبة في كلية التجارة، ولكن هذه الدراسة لم تكن تستهويه، ولكنه كان يحلم بأن يكون نجما سينمائيا يشار إليه بأقلام النقاد، فقد كان وسيما على نحو ما، وكان وجهه مستديرا كوجه حسين صدقي وشعره كشعر أنور وجدي فهو ناعم ولامع وغزير، وكان يحلم بأن يصبح نجما سينمائيا؛ لأنها المهنة الوحيدة التي بمقدورها الانتصار على نقطة ضعفه الوحيدة وهي خجله الشديد من صنف النساء وشعوره بالنقص في حضرتهن. لذلك تتصور بعض الفتيات أحيانا أنه أبكم، وبعضهن يخطئن التحليل فيعتقدن أنه شديد الغرور، مع أنه ـ يعلم الله ـ لا هذا ولا ذاك. ولكنه يشعر أحيانا عندما يجلس معهن أنه يتمنى لو عاد إلى بطن أمه. وإن كان ذلك الشعور لا يمنعه من اختلاس النظرات بين الحين والآخر للاستمتاع بما جادت به الطبيعة عليهن. شيء واحد فقط كان يفسد عليه أحلامه وهو قصر

قامته. كان سعد توفيق قصيرا إلى درجة ملحوظة، لم يكن قزما ولكنه كان أقصر من الرجل العادي. ولكن النجم العالمي جيمس كاجني أقصر منه بالتأكيد، والنجم العالمي ميكي روني كان قزما. ولكن هل ينجح في تحقيق أحلامه فيصبح نجما سينمائيا في قادم الأيام؟ عندما وقع بصره ذات مساء على بعض الأدباء المشاهير في الركن المخصص لهم بقهوة كتكوت تمنى أن ينضم إلى مجلسهم، ولكن هذه الأمنية تحولت إلى رغبة محمومة وهدف منشود عندما رأى المخرج المعروف أحمد خطاب يجلس معهم، صحيح أنه مخرج إذاعي، ولكنه قدم تمثيليات إذاعية اشترك فيها عدد من النجوم المشاهير. ولكن خجله الطبيعي منعه من اقتحام مجلس الأدبـاء، حتى كان مساء عندما جاء إلى القهوة نجم مسرحي شهير، ثم كانت اللحظة التاريخية عندما جاء إلى القهوة نجم الغناء عبد الغني السيد، لا بد من الانضمام إلى جلسة الأدباء بأي ثمن وبكل ثمن. كان الكاتب الشهير عشماوي هو بداية سعد توفيق إلى عالم الأدباء.، وكان عشماوي قد حقق شهرة لا بأس بها عن طريق نشر إنتاجه الأدبي على صفحات جريدة المصري أوسع صحف مصر انتشارا وقتئذ. وكان في الوقت نفسه يعمل موظفا بمديرية التعليم، وكان يسكن في نفس الشارع الذي يقع فيه بيت سعد توفيق.

وعن طريق صاحب مكتبة تقع بجوار قهوة كتكوت تم ترتيب اللقاء بين سعد والأستاذ عشماوي، وقدم سعد نفسه لعشماوي على أنه كاتب على أول الطريق ولديه محاولات يريد أن يستطلع

رأي الأستاذ فيها، وتناول عشماوي كراسة كتب فيها سعد محاولاته ووعده بقراءتها وإبداء رأيه فيها خلال أيام، وتواعدا على اللقاء في قهوة كتكوت، وهكذا أصبح سعد من أعضاء جلسة الأدباء وثبت أقدامه في القعدة وأصبح من نجومها فقد كان ميسورا، واستطاع خلال شهر واحد أن يقيم مأدبتين عامرتين لأعضاء الجلسة الأدبية، وكان لسعد أم في الخمسين من عمرها سيدة مجتمع وتحتفظ بقسط من الجمال الذي بهر الناس يوما ما، وسرعان ما وقع الشيخ عبد المجيد في هواها، صحيح أنه كان غراما من طرف واحد، ولكن الشيخ عبد المجيد كان فارسا من فرسان هذا اللون من الغرام، وكثيرا ما كتب أشعارا في محبوبته التي لا تعلم شيئًا مما يجري حولها. المهم أن الصلات توطدت بين سعد وبين أغلب أعضاء شلة الأدباء. كان الأستاذ سعفان يجد ضالته عند سعد في عمليات الاقتراض التي اعتاد عليها لحل مشاكله المتعددة، وكان الأستاذ عبد الستار يلجأ إلى سعد كلما احتاج إلى الذهاب لمشاويره المتعددة في أنحاء القاهرة، وكان الشيخ عبد المجيد حريصا على زيارة سعد بين الحين والآخر في منزله لكي ينعم بلقاء السيدة والدته لدقائق معدودة!

وهكذا صار سعد عضوا أصيلا بالشلة مما سمح له بمصاحبتهم في زيارة النجوم والموسيقيين المشاهير في بيوتهم، فسهر عدة سهرات ممتعة في بيت الأستاذ الموسيقار الرياني، وتناول طعام العشاء في بيت الصحفي الكبير الرافعي، ودعي مرة لحضور الحفل الغنائي الكبير للمطربة الشهيرة فاتن سعيد، وعندما تعرف على

المخرج السينمائي الكبير أحمد عرفة كاد يطير فرحا، فقد حانت الفرصة ليضرب ضربته الكبرى. وكان أحمد عرفة يمر بضائقة مالية شديدة بعد فشل فيلمه الأخير. وقد وجدها فرصة سانحة للخروج من أزمته عندما أشار إليه سعد بأنه على استعداد للمساهمة في الإنتاج إذا توافرت له فرصة للظهور في فيلمه القادم. ونجحت محاولات الاختبار التي أجراها أحمد عرفة للوجه الجديد سعد، وكان وجهه صالحا للتصوير بدرجة كبيرة، وهي مسألة يتدخل الحظ فيها بنسبة كبيرة، فكم من وجوه مليحة تظهر قبيحة على الشاشة، وكم من وجوه دميمة ليس أجمل منها في الصورة، ومن حسن حظ سعد أن وجهه الجميل ظهر جميلا على الشاشة ولكن سعد ـ لسوء الحظ ـ لم يستطع أن ينطق حرفا واحدا من الكلام الذي لقنوه إياه لكي ينطق به عندما دارت الكاميرا لتصويره. وأصيب بالكتمة عندما وقفت الفاتنة سناء طاهر أمامه، وضاعت كل محاولات المخرج في تثبيت أقدامه، وهكذا انهارت كل أحلام سعد في مشهد درامي عنيف.

عندما تأكد لسعد أن حلمه القديم قد تبخر وأن أمله في أن يصبح نجما سينمائيا هو عشم إبليس في الجنة. كان قد تخرج في الجامعة بدرجة مقبول وأصبح في النهاية محاسبا قانونيا ويمكنه العمل في دوائر الحكومة براتب شهري يقل عن عشرين جنيها. ولكنه رفض الوظيفة وافتتح لنفسه مكتبا للمحاسبة في العمارة نفسها التي تحتل قهوة كتكوت الدور الأرضي بها. وأصبح يظهر نادرا في ركن الأدباء بعد أن تأكد فشله في أن يصبح نجما من نجوم السينما.

ولكن طموح الإنسان للظهور في مجال ما يكون عادة تعبيرا عن طموح عام، يمكن أن ينتقل بصاحبه من مجال إلى مجال. لذلك بدأت أعراض الاشتغال بالزراعة تظهر على المحاسب سعد توفيق. ولكنه وأثناء تفكيره في مشاريعه الزراعية جاءه عرض غريب. عرض عليه أحد الصيادلة أن يظهر في إعلان عن دواء جديد يقضي على ظاهرة الصلع، فيظهر في صورة وهو حليق الشعر، ثم يظهر في الصورة الثانية بشعره الجميل، وسيكون هذا الإعلان خير دعاية للدواء الجديد، وعرضوا عليه مبلغا من المال كان كبيرا بعملة ذلك الزمان، ورفض سعد عرض الصيدلي؛ لأنه لا يقبل أن يقوم بحلق شعره مهما كانت الأسباب والمبررات ولكنه عاد فقبل عندما عرف أنه ليس مضطرا إلى حلاقة شعره؛ لأنهم قادرون على إظهاره بصورة الأصلع عن طريق عمل مكياج متقن له.

وضربوا له مثلاً بأحدب نوتردام، الذي ظهر فيه الممثل العالمي الشهير شارلز لوتون على صورة أحدب وأعور وأقرع ولم يكن به شيء من هذا على الإطلاق. سر سرورا عظيما وشعر بزهو شديد عندما رأى سعد صوره في أفيشات كبيرة على جدران العمارات وفي مساحات لا بأس بها على صفحات الصحف، وفي الجريدة المصورة التي تعرضها دور السينما قبل عرض الفيلم مباشرة لقد صار نجما سينمائيا ولكن دون كلام. ولو ظهر سعد في أيام السينما الصامتة لكان أعرض شهرة من شارلي شابلن؛ لأنه وسيم بدرجة كبيرة في الصورة وبشكل لم يكن سعد يتوقعه. وكانت الفتيات

تتوقف عند صورته المثبتة على الحوائط وتتفرس فيها بإعجاب شديد.

ولكن إحساسا ما داخل سعد يجعله ينفر من هذا العمل ويرفض الاستمرار فيه. شعر سعد بأنه اشترك في عملية نصب لخداع الجماهير. فهو في واقع الأمر ليس أصلع، كما أنه لم يتناول ولو قطرة واحدة من هذا الدواء المعجزة، الذي اخترع تركيبته الصيدلي إياه. إنها جريمة نصب تتوافر لها كل الأركان التي تؤكد تجريمها. ولذلك قرر سعد أن يكف عن المضي في هذا الطريق مهما كانت المكاسب التي سيحصل عليها. وبدأ طموحه ينحرف إلى وجهة أخرى، فقد ظهرت أعراض السياسة على سعد توفيق. وكان في المرات القليلة التي يجلس فيها في ركن الأدباء يدخل في نقاش حاد مع البعض حول أحوال البلاد ومستقبلها، ولكنه كان حريصا على أن يحدد موقفه كمستقل لا علاقة له بحزب من الأحزاب، كان سعد يفضل أن يكون في مكان محايد بين الجميع باعتبار أن خير الأمور الوسط، وكانت مصر على أبواب معركة انتخابية بعد إقالة حكومة الوفد في نهاية الحرب العالمية الثانية وبعد أن تأكد زوال الخطر الألماني وانحسار المد النازي، وخروج قوات المحور من إفريقيا. ونصح البعض سعد توفيق بالانضمام إلى الحزب السعدي أو الحزب الدستوري حيث إن الحكومة القادمة ستكون حكومة تحالف من الحزبين.

ولكن سعد اختار أن يكون مستقلا وخاض المعركة الانتخابية على هذا الأساس.

ومن أجل الفوز في المعركة الانتخابية طبع سعد توفيق عدة ألوف من الصور من مختلف الأحجام. واستعان بصورته التي ظهرت في إعلان الدواء الذي يقضي على الصلع.

وغطى حوائط الجيزة بصورته وهو في كل الأوضاع، مرة وهو واقف على قدميه، ومرة وهو جالس خلف المكتب، ومرة وهو يسند رأسه على قبضة يده وكأنه في حالة تفكير. واكتفى بكتابة عبارة مختصرة تحت الصورة «انتخبوا ابن الدايرة». لم يوفق سعد توفيق في انتخابات مجلس النواب وجاء ترتيبه الأخير بين المرشحين، ولم يسترد تأمينه الذي دفعه قبل خوض المعركة. كانت الصور التي طبعها سعد توفيق أكثر مما يجب، وعندما استفسر منه وكيله الانتخابي عن مصير هذه الصور طلب منه تخزينها لحين الحاجة إليها. وكانت الصور من الكثرة لدرجة أنه أفرد لها حجرة خاصة في مكتبه لحفظها، وأصابت الدهشة الكثيرين من معارفه بسبب تخزينه للصور، ولكن الدهشة سرعان ما زالت عندما أصدر سعد أوامره بإعادة تعليق الصور في كل أنحاء الجيزة؛ لأنه قرر ترشيح نفسه في انتخابات الغرفة التجارية. ولكن نتيجة الانتخابات لم تختلف كثيرا عن نتيجة الانتخابات السابقة، فشل سعد بجدارة وكان ترتيبه قبل الأخير بواحد. واستبدت الدهشة بوكيله عندما كان أول قرار أصدره بعد أن عرف نتيجة انتخابات الغرفة التجارية، بطبع عدة آلاف من الصور وتخزينها في غرفة المكتب، صاح الوكيل مستنكرا:

ـ وهنعمل بيهم إيه؟ هنخللهم. ثم إن أقرب انتخابات فاضل عليها سنتين.

رمقه سعد بنظرة قاسية وقال له:

ـ مش بقولك إنت بتاع انتخابات وبس، مفيش عندك أي ذرة فهم للاقتصاد.

ـ ودي مالها ومال الاقتصاد بقى.

ـ إذا كانت الانتخابات بعد سنتين، يبقى لو طبعتهم الآن هنوفر الشيء الفلاني. ثم أنا لما أقولك حاجة تنفذها.

ـ حاضر يا فندم.

وصار من عادة أطفال الجيزة إذا علموا بأن هناك انتخابات على الأبواب أن يهرعوا إلى مكتب سعد توفيق ليحصلوا على صوره، ثم يقوموا بالطواف في أنحاء المدينة مرددين الهتاف الذي اعتادوا عليه: انتخبوا ابن الدايرة.. يا توفيق بالتوفيق.. وكان وكيل سعد يتولى توزيع قطع الشيكولاتة على الأطفال، وأحيانا كان يوزع عليهم كراريس رسم وأقلام ألوان.

كانت آخر انتخابات خاضها سعد توفيق هي الانتخابات التي أسفرت عن فوز حزب الوفد وفاز فيها بأغلبية ساحقة، لذلك لم يكن هناك من هو أكثر سعادة من سعد توفيق عندما احترقت القاهرة وتمت الإطاحة بحكومة النحاس باشا وحل مجلس النواب. وشمر سعد عن سواعده فهو بالتأكيد سيكون له شأن في الانتخابات

القادمة. وراح يستعد لهذا اليوم الموعود، غير أن آماله تحطمت كلها عندما أذاع الجيش بيانه الأول من إذاعة القاهرة.

* * *

يا لضيعة أحلامك يا سعد توفيق.. طول عمرك تكره الضبط والربط والأوامر والتعليمات، وها هي الدنيا ضاقت بك وضاقت عليك. وهذه السلطة الجديدة لا تحب الانتخابات ولا تشجعها، وليس من طبيعتها أن تمارس سلطتها على برلمان ونواب، ولكنها تكتفي بإصدار الأوامر وتطلب من الآخرين تنفيذ الأمر. عندما شعر سعد بالإحباط لجأ مرة أخرى إلى قهوة كتكوت، وحرص في هذه المرة على أن يبتعد قليلا عن قعدة الأدباء، فمثل هذه القعدة لم تكن مضمونة العواقب، خصوصا وهؤلاء الأدباء يجيدون الثرثرة، وهو الأمر الذي يجب تجنبه في مثل هذه الظروف، ولكن.. وبالرغم من حرصه الشديد والتزامه الحذر فقد جاءه الولد ريعو جرسون القهوة بخبر جعل النوم يفر من عينيه، أبلغه ريعو أن سيارة عسكرية توقفت إلى جوار رصيف القهوة ونزل منها ضابط له مهابة، وسأل عن الأستاذ سعد توفيق، ولما لم يجده أبلغ ريعو بأنه سيعود مرة أخرى بعد أيام. وعبثا حاول سعد توفيق معرفة أي شيء عن حقيقة هذا الضابط أو اسمه أو مهمته أو وظيفته. ماذا تخبئ لك الأيام يا سعد يا توفيق؟

لقد حرص طوال العمر على أن يبقى محايدا، لكن المشاكل لا تعرف الفرق، ولأن المصائب مصابة بالعمى فقد تصطدم بالأبرياء

وتتفادى الذين يستحقون الموت. بعد عدة أيام كان سعد يجلس داخل القهوة بعيدا عن جلسة الأدباء عندما جاءه الولد ريعو يحجل كالغراب، ثم قال له في لهفة:

ـ الظابط جه.. الظابط جه.

نهض سعد من مكانه متلهفا لرؤية الضابط إياه، وهو شديد القلق شديد الخوف، وإن تعمد إخفاء خوفه بابتسامة مصطنعة رسمها على شفتيه، يا الله.. عندما وقع بصر سعد على الضابط اشتعلت ذاكرته الخامدة وعادت إلى الحياة.. يا الله.. سهيل.. هكذا صاح سعد باسم الضابط وهو غير مصدق ما تراه عيناه.

ـ فين أراضيك؟

رد الضابط في هدوء:

ـ مسير الحي يتلاقى.

ـ مفيش كلام.

سحب سعد صديقه الضابط إلى حيث كان يجلس داخل القهوة.. لكن الضابط توقف فجأة وقال لسعد:

ـ ما تيجي نقعد بره نشم هوا.

ولكن سعد أقنعه بالجلوس في الداخل، فلما سأله الضابط عن السر وراء ذلك قال له:

ـ أنا بيني وبينك مش عاوز أورط نفسي في أي حاجة غلط.

وسأله الضابط في اهتمام:

ـ فيه حاجات غلط بتحصل هنا؟

ورد سعد بصوت خفيض:

ـ لأ ما حصلش لحد دلوقت، لكن أنا حريص أن أكون بعيدًا.

قال الضابط كأنه يصدر أمرًا:

ـ على كل حال الاحتياط أحسن اليومين دول.

انهمك الرجلان في حديث عن أيام زمان، أيام المدرسة الثانوية، وضحكا في وقت واحد عندما تذكرا صادق أفندي مدرس الكيمياء، ولم يفترق الرجلان في أيام الصبا إلا عندما التحق الضابط بالكلية الحربية، بينما ذهب سعد والتحق بالجامعة.

ـ ولكن أين أنت الآن من هذا كله؟

هكذا سأل سعد توفيق صديقه الضابط.

ـ أنا كما تعلم كنت في سلاح المدرعات، وأنا الآن في القيادة العامة. وقد جئت لك في خدمة وأرجو التوفيق.

رد سعد في ثقة:

ـ أنا حاضر وتحت أمرك، وأي خدمة أستطيع أن أؤديها لك سأفعل بكل سرور.

شكره الضابط وأثنى عليه، ثم قال له:

ـ نصيحتي الوحيدة لك أن تأخذ حذرك دائمًا، فالأيام القادمة ستحمل معها الكثير، وأعداء الثورة على قفا من يشيل فلا تتورط في شيء.

وحكى له سعد كيف قاطع قعدة الأدباء حتى لا يتورط في أي شيء. وكانت دهشة سعد كبيرة عندما نصحه الضابط بأن ينفتح على الناس، وأن يجلس مع الأدباء وغيرهم دون أن يورط نفسه في شيء.. وقال له:

ـ إحنا مش عبط ولا بريالة.. المهم إنك تتحفظ في كلامك وفي سلوكك وبس.. وكل واحد متعلق من عرقوبه.. وبعدين أنا عاوز أقولك حاجة.

أصغى سعد بكل جوارحه وقال:

ـ اتفضل.

همس الضابط قائلا:

ـ إحنا محتاجين مدنيين معانا، مش معقول العسكر بس همه اللي هيحكموا البلد. ولذلك أنا فكرت فيك وجيتلك.

التقط سعد العبارة الأخيرة وتساءل في ريبة:

ـ محتاجينهم في إيه؟

ـ في حاجات كتيرة المهم إحنا عاوزين معانا ناس نضاف وسمعتهم كويسة، وبعدين المستقبل دا بإذن الله. والجماعة اللي

هيكونوا معانا بإذن الله، ممكن يبقوا مستشارين للحكومة، وممكن يبقوا وزرا.

وزرا.. هكذا هتف سعد بينه وبين نفسه.. آه لو صحت الأحلام يا سعد.. وزير وحاشية وحراس وكشك أمام البيت،. ووفود لا تنقطع واجتماعات وتصريحات.

وتوقف سعد عن التحليق بأحلامه فجأة، وارتسمت على ملامحه أطياف حزن مفاجئ. ياقوة الله.. هل تتحول هذه الحركة إلى عقبة في طريق مستقبله، هل سيعثرون عليها عندما ينقبون في تاريخه وماضيه، صورته على الجدران في أنحاء المدينة، مرة وهو أصلع ومرة وهو بشعره الناعم الغزير؟ ولكنها كانت أيام الشباب وفي الشباب ياما نزوات وتجاوزات.

وعلى العموم.. ربنا يستر!

١١ـ نرجس ومندوب القيادة!

عاش المحاسب توفيق يحلم أحلاما سعيدة بعد لقائه بصديقه الضابط على قهوة كتكوت. من كان يتصور أن حلم توفيق سوف يتحقق على يد صديق الصبا والشباب؟ الأمر الذي حير توفيق هو أن صديقه الضابط لم يكن يبدي اهتماما من أي نوع للأحداث السياسية، كان بطلا رياضيا مارس الملاكمة، حمل الأثقال ثم انحصر اهتمامه بعد ذلك في كرة السلة، ولكنه لم يحقق فيها نجاحا كبيرا، واستمر يلعب في فريق المدرسة ولكنه لم يتمكن من الالتحاق بأية فرقة من فرق النوادي الكبيرة. والسبب في ذلك أنه كان شديد الشغف بعقد صلات متعددة مع عدد كبير من البنات. وبسبب هذه الهواية تراجع دوره كثيرا حتى في فريق المدرسة، فأصبح خارج التشكيل الأساسي وضمن الاحتياطي فترة طويلة من الوقت، قبل أن يعلن احتجاجه وينسحب بإرادته من الفريق، ولكن سحر الحياة وسرها أن المقدمات لا تدل بالضرورة على النتائج. وها هي السياسة تسعى لصديقه بعد الثورة فيجد نفسه رغم أنفه في قلب العواصف السياسية. ولكن لأنه ابن ناس وحريص على

العيش والملح، فقد سعى إلى صديقه القديم ليقاسمه المسئولية ويشركه معه في حكم البلاد.

وحلق توفيق بخياله بعيدا. هل يحالفه التوفيق فيصبح واحدا من الحكام؟ وما المانع أن يصير توفيق بين الحكام؟ وكما صار شولح بين الأنبياء. وجلالة الملك فؤاد نفسه كان من «الصياع»، ولكن الظروف أجبرت السلطة البريطانية على الاتصال به وساومته على حكم مصر ومنحته لقب السلطان. وتوفيق لا يطمع في أن يكون سلطانا، يكفيه أن يكون محافظا أو وزيرا، وهو وضع أكثر أبهة بالتأكيد من عضو مجلس النواب! مرت أيام كثيرة قبل أن يظهر الضابط مرة أخرى في قهوة كتكوت. وكان قد حدث تطور خطير في سلوك المحاسب توفيق؛ كان قد عاد مرة أخرى إلى توثيق علاقته بشلة الأدباء نزولا على نصيحة صديقه الضابط. وعندما جاء الضابط وجد توفيق مشتبكا في مناقشه حامية مع أحد الأدباء عن ضرورة تطبيق الديمقراطية قبل الدخول في صراع مع الإنجليز لإنهاء الاحتلال الانجليزي، وكان هذا هو رأي الأديب، بينما كان من رأي توفيق أن الجلاء أولا لا بد أن يكون هدف أية حكومة. ألقى الضابط السلام على الجميع وكأي صديق قديم سحب الضابط أحد الكراسي وجلس، والتقط الخيط وواصل الحديث الذي كان يجري قبل حضوره. ولكنه اضطر إلى التوقف عندما نهض الناقد عبد الستار ورفع يده مودعا دون سابق إنذار. وقال الضابط معلقا:

ـ إيه الحكاية؟ إذا جاءت الشياطين ذهبت الملائكة؟

ورد الأستاذ الناقد بنبرة حاول أن تكون ودية:

ـ بالعكس، دانا كنت نفسي أقعد معاك، بس الحقيقة أنا كان ورايا مشوار مهم جدا وكنت ناسيه.

والحق أن الأستاذ الناقد كان لا يخفي عداءه للثورة وكان يطلق عليها من باب السخرية «الحركة المباركة» ومنذ إعلان بيانها الأول كف عن الكتابة تماما، وربما كان يمارس الكتابة ولكنه كان يرفض نشر ما يكتبه. وكتب ونشر مرات قليلة ولكن في مجلات أدبية تصدر في بيروت. وحاول بعض محرري الصحف أن ينتزعوا منه ولو عدة كلمات عن تأييده للثورة ولكنه كان يرفض بإصرار، متعللا بأنه أديب وليست له علاقة بالسياسة!

وتركت هذه الحركة من جانب الناقد أثرا في نفس الضابط، ودفعه هذا الشعور إلى مصارحة الجالسين بأنه تطفل عليهم ويخشى أن يكون تسبب في مضايقتهم، وأكد لهم أنه لن يتطفل على مجلسهم مرة أخرى، ولكن الأستاذ عشماوي نهض من مجلسه واقترب من مجلس الضابط وقال له في لهجة ودودة:

ـ يا خبر أبيض، دا إحنا كنا فاهمين إن الحساسية المفرطة هي من متعلقات الأدباء فقط، لكن إنت النهاردة أضفت إلى علمنا معلومة جديدة، وهي أن الضباط أكثر حساسية من الأدباء!

ثم راح يشرح للضابط كيف أن الأمور بين شلة الأدباء تمضي

بدون حساسيات. وأكد له أن أحدهم قد ينصرف فجأة أثناء مناقشة حامية هو نفسه الذي فجرها.

ووجدها الأستاذ عشماوي فرصة فراح يشيد بدور الجيش في تحرير مصر من الفساد السياسي والمالي، ولكنه شديد الدهشة لأن الثورة لم تهتم بالاتصال بالمثقفين لمعرفة رأيهم في حاضر البلاد ومستقبلها، ثم نظر إلى الضابط نظرة ذات مغزى وقال له:

- حضورك النهاردة وقعدتك معانا، أنا شخصيا باعتبر ذلك أول لقاء حقيقي تقوم به الثورة بالمثقفين.

سر الضابط سرورا عظيما بحديث الأستاذ الأديب، ولذلك كان حريصا على أن يعرف كل شيء عنه بعد أن نهض الأدباء وانصرفوا من القهوة. سأل الضابط صاحبه المحاسب عن شخصية الأديب صاحب الحديث الممتع.

وسر أكثر عندما علم أنه موظف حكومة في الصباح ومحرر ليلا في إحدى الجرائد الصباحية الكبرى، كما أنه عالم كبير في الفنون الشعبية، وله برامج ناجحة جدا في الإذاعة والتليفزيون. عندئذ قال الضابط لصديقه المحاسب بطريقة تشبه الأمر:

- فليكن هذا الأستاذ هو أول العشرة الذين سيقع اختيارك عليهم.

وظهر على ملامح المحاسب أنه لم يفهم شيئًا، فقال الضابط:

- نسيت أن أقول لك إن مهمتك الآن ستبدأ باختيار عشرة أفراد

مدنيين من أصحاب السمعة الطيبة والنشاط الجماهيري لحشدهم خلف الثورة من أجل خدمة الشعب وتنفيذ برامج الثورة.

وتساءل المحاسب الذي كان قليل الخبرة بالعمل السياسي:

ـ وهل يكفي هؤلاء العشرة للقيام بهذه المهمة الجليلة؟

وقال الضابط موضحا:

ـ نسيت أن أخبرك أيضا بأن لدينا الآن ألف مواطن مثلك، ومطلوب من كل واحد منهم تشكيل خلية من عشرة.

وبعد فترة صمت قال المحاسب:

ـ وهل هؤلاء العشرة آلاف مواطن فيهم الكفاية؟

وابتسم الضابط ابتسامة عريضة وقال:

ـ أنا في الحقيقة غير مأذون بأن أكشف لك السر كله. ولكن سأكشفه لك وكلي ثقة أن ما أقوله لك الآن سيظل سرا بيننا.

وهز المحاسب رأسه عدة هزات سريعة وقال للضابط:

ـ سرك في بير.. اطمئن.

قال الضابط وهو يهمس في أذن المحاسب:

ـ هؤلاء العشرة أعضاء الخلية، سيكون على كل واحد منهم تجنيد عشرة، سيضم التنظيم عدة ملايين في فترة وجيزة.

يا قوة الله، فكرة بسيطة ولكنها جهنمية. كيف غابت هذه

الفكرة عن حزب الوفد وبقية الأحزاب الأخرى. عشرة في عشرة في عشرة يتكون منهم تنظيم أقوى ألف مرة من كل الأحزاب التي عرفها البشر.. وسيكون طبعا لمن جند العشرة الأوائل شرف التواجد في الصدارة وعليه واجب القيادة لتحقيق النجاح لبرامج الثورة!

أصبح من عادة الضابط أن يحضر إلى قهوة كتكوت بين الحين والآخر. وكان الحاضرون من الأدباء يفسحون له مكانا بينهم، كما كان المعلم كتكوت حريصا على تقديم المشروبات بنفسه للضابط، الذي اشتهر بين رواد القهوة بأنه مندوب القيادة.

وتأكدت هذه الإشاعة عندما حقق رجاء المعلم كتكوت بتوظيف أحد أبنائه في شركة الدخان التي تقع في دائرة مدينة الجيزة. وقد تم تعيينه بسرعة وبوظيفة ملاحظ وبراتب قدره عشرة جنيهات شهريا، وهو مبلغ يقترب كثيرا من مرتب خريج جامعة، ولم يكن ابن المعلم كتكوت يجيد القراءة والكتابة.

عندما فاتح المحاسب توفيق أستاذ الفن الشعبي في موضوع تجنيده في الخلية، أبدى ترحيبا شديدا بالفكرة وحماسا أشد في الانضمام إليها. وأكد للمحاسب أنها فكرة وجيهة لو تم تنفيذها على الوجه الأكمل فستكون قاعدة صلبة لحكومة الثورة تستطيع من خلالها الانطلاق لتحقيق حلم الجماهير. وأبدى أسفه؛ لأن وقته ضيق لسعيه المتواصل من أجل لقمة العيش، ولكنه وعد بتنظيم وقته لكي يتسنى له أن يلقي بنفسه في بحر الثورة كلما

وجد الفرصة لذلك. ووصلت الرسالة إلى المحاسب توفيق الذي فاتح صديقه الضابط بأن الأستاذ سيكون أكثر فائدة لو رتبنا له وظيفة واحدة تؤمن له دخلا يكفيه، وقد رد الضابط باختصار:

- سأحاول وسأقوم بإبلاغك عما قريب.

انشغل المحاسب توفيق بتجنيد بقية العشرة ولم يتمكن من تجنيد أحد من شلة الأدباء إلا أستاذ الفن الشعبي وأديب آخر كان يعمل موظفا بالحكومة ويكتب بعض القصص أحيانا ينشرها في مجلة أدبية محدودة التوزيع. أما الأدباء الآخرون فقد ترددوا في الانضمام وبعضهم رفض الفكرة تماما، وانقطع عن الحضور إلى القهوة كما أن الأستاذ الناقد الذي غادر القهوة لحظة حضور الضابط وانضمامه إلى الجلسة أول مرة، لم يظهر مرة أخرى في القهوة واختفى تماما فلم يره أحد بعد ذلك!

ومرت عدة أسابيع سأل المحاسب صديقه الضابط عما إذا كان قد وجد حلا لمشكلة أستاذ الفن الشعبي وجاءه الجواب:

- اتركه الآن كما هو، وعندما يأتي الوقت المناسب سيكون الحل جاهزا.

وعندما سأله المحاسب:

- ومتى يكون الوقت المناسب؟

قال الضابط بحسم:

- لا أعلم، ولكني أريدك أن تعلم أنني لا أحكم ولكنني أنفذ أوامر!

أقلقت هذه الكلمات المحاسب توفيق، ما معنى أنه لا يحكم ولكنه ينفذ أوامر؟ وبالرغم من القلق الذي استبد به إلا أنه راح يواصل جهوده لتجنيد العشرة المكلف بتجنيدهم.

ومع ذلك لم يستطع تجنيد أكثر من خمسة أفراد. اثنان من الأدباء، واثنان من زملائه المحاسبين وفراش مكتبه الذي لم يفهم شيئًا، ولكنه أبدى ارتياحا؛ لأنه سيكون «مع الأستاذ» في المكان الذي يتواجد فيه!

ثار صديقه الضابط عندما علم أنه فشل في تجنيد العشرة، وقال في غضب:

- كنت شديد الثقة في مقدرتك على سرعة إنجاز هذه المهمة ولكنك للأسف الشديد تعثرت لسبب غير مفهوم.

ورد المحاسب سعد توفيق:

- في الحقيقة الناس تخشى الارتباط بالثورة؛ لأنهم لا يضمنون استمرارها.

وقاطعه الضابط قائلا:

- وهل هذا هو شعورك أنت الآخر؟

ورد توفيق وقد استبد به الخوف:

ـ أنا لا أعتقد إن فيه حد بيحب الثورة قدي.

ـ لو كان دا حقيقي يا توفيق كان الناس لبوا دعوتك.

ـ إذا كنت مش مصدقني يبقى بلاش أتعب نفسي وأشتغل معاكو.

ابتسم الضابط وقال لصديقه المحاسب:

ـ إيه الحكاية، إنت النهاردة مش زي عوايدك.

ـ تمتم المحاسب بكلام غير مفهوم في البداية، ثم قال بصوت مسموع:

ـ إذا كنت بتشكك في ولائي للثورة يبقى الواحد يقعد في البيت أفضل.

حاول الضابط تهدئته بكلام معسول ولكن المحاسب أبدى رغبته في العودة إلى منزله لشعوره بالإرهاق، وعندما وقف الضابط للانصراف، وضع كفه على جبهة صديقه، وقال له في ود:

ـ دول شوية برد روح نام واشرب لمون وهتروق.

ثم قال له وهو يبتعد:

ـ ها اتصل بيك بالتليفون عشان أطمئن عليك.

عاد توفيق إلى المنزل بالفعل وفي نيته أن يدخل سريره وينام، ولكنه وجد أمه في انتظاره ومعها خطاب. وقبل أن يفض غلافه سألها:

ـ منين؟

ـ ما عرفش يا بني. الواد جابه وقال من واحدة ست.

ست!! منذ أيام الدراسة في الجامعة لم يكن له علاقة بأي ست.

أسرع بفض الغلاف وألقى نظرة على الخطاب نفسه، فاكتشف أن الورق بلون البنفسج. ولم يكن بالخطاب إلا عدة كلمات قليلة «عاوزة أشوفك ضروري لأمر هام إذا كنت لسه فاكرني». يا للمفاجأة. التوقيع: نرجس.

يا سبحان الله، نرجس مرة أخرى. ترى كيف يكون حالها الآن؟

لا بد أنها تزوجت وأنجبت أطفالا كثيرين. لقد كانت هي الأنثى الوحيدة التي كان لا يشعر معها بخجل. وكان يجالسها ويحدثها، وفي مرات كثيرة تجرأ ووضع يده على كتفها، ومسح براحة يده على شعرها. ولكن لماذا تذكرته بعد كل هذه السنوات؟ وما هي الخدمة التي تريدها؟ من حسن الحظ أنها سجلت رقم تليفونها على الخطاب. أدار القرص وطلبها. وجاءه صوت عذب كما عرفه من قبل، صوت أنثى عاشت طفولة ناعمة وشبابا مرفها، أبدت رغبتها في أن تراه، فسألها أن تحضر إلى منزله:

ـ أنا معايا والدتي في البيت وما فيش حد تاني. اتفقا على الموعد.. الخامسة بعد الظهر. ألقى توفيق نظرة على نفسه في

المرآة، واضطرب عندما اكتشف أن ذقنه طويلة وشعر رأسه لم يعرف طريقه إلى الحلاق منذ فترة. وألقى نظرة على الساعة، كانت تشير إلى الثالثة بعد الظهر. طلب من والدته أن توقظه من النوم في الرابعة تماما، ودخل سريره وحاول النوم ولكنه لم يفلح. وظل يستدعي النوم دون جدوى ولم توقظه أمه في الرابعة؛ لأنه غادر سريره في الثالثة والنصف. ودخل إلى الحمام فاغتسل وحلق ذقنه، ثم ارتدى بدلة أنيقة كان من عادته أن يرتديها في المناسبات السعيدة. وطلب فنجان قهوة وجلس يتصفح مجلة أسبوعية ويعد الدقائق والثواني في انتظار نرجس. العجيب أنها كانت دائما تنقذه من مواقف محرجة. ولولا موعدها لكان الآن غارقا في بحار من القلق بسبب ما جرى بينه وبين صديقه الضابط.

وبسبب فشله في تجنيد عشرة أشخاص يتحمسون له وللثورة.

إنها مشكلة حقيقية؛ لأنه في الواقع لا يعرف أشخاصا كثيرين وهو شخصيا يتحرك في دائرة ضيقة بالرغم من أنه يرشح نفسه في كل الانتخابات، وأخرجه من تأملاته وصول نرجس، سمع رنين الجرس وشاهد خيالها من خلف زجاج النافذة. وعندما فتح لها الباب ووقع نظره عليها كأنه رأى شبابه يعود إليه، نرجس كما كان يعرفها أيام الجامعة. هي هي لم تتغير، صحيح أن الزمن ترك بصمة هنا وبصمة هناك، ولكنها لا تزال تحتفظ بحسنها ودلالها. سألها عن أحوال أسرتها الصغيرة.. أولادها وزوجها. واكتشف أنها مثله لم تتزوج وليس لها ولد.

واكتشف أيضا أن والدها توفي وشقيقها الوحيد تزوج، وتعيش مثله مع والدتها المريضة. وتعمل في الجهاز المركزي للمحاسبات. ولكنها مظلومة وتعاني من الاضطهاد، فالذين تخرجوا بعدها يتولون مناصب مهمة وحساسة في الجهاز الذي تعمل فيه. والسبب أنها بلا ظهر يحميها. وقد فكرت في أن تلجأ إليه لعله يستطيع أن يتدخل من أجلها لكي تحصل على حقوقها المشروعة.

وأصابته دهشة شديدة لاعتقادها أنه يستطيع خدمتها، وقال لها وهو يدقق النظر في ملامحها:

ـ ليس أسعد مني لو استطعت تقديم خدمة لك.. ولكن كيف؟ أنت ربما لا تعلمين أنني أدير مكتب محاسبة ولا أشغل مركزا حكوميا. وليس لي علاقة بأحد في الجهاز المركزي للمحاسبات.

نظرت نرجس نظرة ذات معنى لتوفيق وقالت في أسف:

ـ ياه.. دانت ما تغيرتش.. ولا عمرك هاتتغير.

نظر إليها توفيق ببلاهة وقال:

ـ قصدك إيه مش فاهم.

ـ قصدي إنك طول عمرك أناني.

صاح توفيق مستنكرا:

ـ أنا أناني يا نرجس؟!

نهضت نرجس من مكانها وقالت بغيظ:

ـ أنا فعلا كنت غلطانة لما فكرت أجيلك في تلك اللحظة كانت الأم قد دخلت بصينية القهوة، فنظرت إليهما وقالت:

ـ إيه يا توفيق.. إزاي تزعل ضيفتك؟

وقال توفيق:

ـ أنا يا ماما!! والله ما زعلتها.

وقالت نرجس وهي تحاول الانصراف.

ـ طيب يا جماعة، أستأذن أنا بقى.

وقالت الأم منزعجة:

ـ يا خبر.. وما تشربيش القهوة بتاعتي يا بنتي!

مد توفيق يده فأمسك بذراع نرجس وقال لها:

ـ طيب اقعدي بس فهميني.. إنت زعلت ليه؟

ـ ما تعرفش ليه؟ مانا بقولك أنا جيالك في طولك وفي عرضك، تقوم تقوللي أنا ما عرفش حد في ديوان المحاسبة. يا سلام.. ما انت تعرف الناس اللي يقدروا يجروا الهرم الأكبر من مكانه.

صاح توفيق مندهشا.

ـ أنا!!

ـ أيوه أنت.

ضحك توفيق ضحكة هستيرية وقال:

ـ طيب قوليلي همه فين؟

ـ يا سلام.. مندوب القيادة.

سرح توفيق بعيدا ثم عاد إلى نفسه وقال:

ـ قصدك..

قاطعته نرجس قائلة:

ـ أيوه قصدي.

نهض توفيق على قدميه وعض إصبعه الكبير عضة تركت أثرا على الجلد وتنهد تنهيدة حارة وقال كأنه يتحدث لنفسه:

ـ أما شيء غريب خالص.

١٢ ـ على سكة عرابي!

غرق المحاسب توفيق في أفكار شتى، لدرجة أنه لم يشعر بنرجس وهي تغادر المنزل، هل علاقته بصديقه الضابط أصبحت معروفة للجميع؟

وهل صديقه يحتل موقعا في قمة المسئولية يسمح له بفعل ما يشاء؟

لقد تصور المحاسب توفيق أنه مجرد ضابط صغير، وقد يكون له موقع في جهاز حساس، ولكن نفوذه لا يتعدى أبعد من مرمى حجر. ومع ذلك كان توفيق سعيدا بصداقته في حدود وضعه كما تصوره.

ولكن لو كان صديقه له كل هذا النفوذ، فتوفيق يجب أن يقطع علاقته به على الفور. فالمحاسب توفيق حرص طوال العمر على المشي جوار «الحيط»، وصداقته بمسئول صغير عواقبها بسيطة، ولكن عواقب مصادقة الكبار مدمرة. والناس قد تغفر للكبير ولكنها لا تغفر لبطانته. والفكرة عنهم دائما أنهم إما متربحين وإما منافقين.

والمحاسب توفيق لا يسمح لنفسه أن يكون في هذا الوضع. ما العمل الآن؟ وهل يمكنه الانسحاب في هذا الوقت؟ وما هو السبيل إلى تحقيق هذا الانسحاب دون إثارة غضب صديقه الضابط؟ لأن عواقب مثل هذا الانسحاب ستكون رهيبة، خصوصا إذا صحت مزاعم هذه السيدة التي ظهرت فجأة في حياته وكأنها شبح من أشباح الماضي.

وعلى مدى أسبوع كامل لم يهنأ توفيق بفترة نوم هادئة، ونسب هذه الحالة لانتفاخ في المصران الغليظ، ولكن الطبيب الذي عرض نفسه عليه أكد أن حالته العصبية المتوترة هي السبب في انتفاخ المصران الغليظ. ولما عرف المعلم كتكوت بمرض توفيق بيه المحاسب أمر الولد ريعو بعدم تقديم أي مشروبات للبيه ما عدا الينسون والنعناع. وعندما حضر المحاسب توفيق إلى القهوة مساء تلقاه المعلم كتكوت بالأحضان ناصحا إياه بشرب الينسون والنعناع مضيفا:

ـ عشان نشوفك زي الوردة المفتحة وترجع لقعدتك اللي حرمتنا منها، وكمان عشان تفوق للراجل الطيب صاحبك اللي كان عامل زي اليتيم وانت عيان ونايم في البيت.

تساءل المحاسب توفيق عن هذا الصديق الذي كان أشبه باليتيم أثناء مرضه، وأجاب المعلم كتكوت:

ـ الراجل صاحبك الضابط، دا راجل أمير قوي وابن ناس وينحط ع الجرح يبرد!

واستبدت الدهشة بالمحاسب توفيق وسأل المعلم كتكوت:

ـ إنت كنت تعرف الضابط قبل كده؟

وأجاب المعلم كتكوت على الفور:

ـ وهاعرفه فين؟ دنا عمري ما شفته غير هنا، لكن الكتاب يبان من عنوانه، وهو راجل سمح وباين على وشه إنه ابن ناس طيبين.

وسكت المعلم كتكوت قبل أن يعاود الحديث قائلا:

ـ دا غير بقى إنه راجل مسنود وإيده طايلة.

وحدق المحاسب توفيق في عيني المعلم كتكوت وسأله:

ـ وانت عرفت إزاي إنه مسنود وإيده طايلة؟

مال المعلم كتكوت على أذن المحاسب توفيق وهمس له المخبر عبد ربه قاللي.

ورد المحاسب توفيق ساخرا:

ـ هوه عبد ربه بقى مدير المباحث؟

ـ يا أستاذ، يحط سره في أضعف خلقه. ثم هوه عرف من الخدمة اللي متعينة له.

ـ خدمة إيه؟

ـ حراسة، حراسة في البيت وحراسة في الشغل وحراسة شخصية، يعني هوه محروس الـ ٢٤ ساعة. ودا معناه إنه راجل تمام ويفوت في الحديد.

يفوت في الحديد ـ يا دي الكارثة اللي حطت على رأسك يا توفيق. يثاب الرجل رغم أنفه، ويذهب إلى اللومان رغم أنفه أيضا. إذن الحكاية صحيحة وما ذكرته نرجس هو الحقيقة. وكل الناس تعرفها حتى المعلم كتكوت، بينما توفيق وحده هوه اللي نايم على ودانه. وكأنه أطرش في زفة! ولكن توفيق لا يمكن فرض وضع معين عليه.. خصوصا إذا كان توفيق يرفضه. وسيجرب توفيق ألف وصفة وسيسلك ألف طريق لينطلق من القفص الذي يوشك على دخوله بقدميه وفرح المحاسب توفيق عندما أقبل في اليوم التالي على مجلسه في القهوة فوجد الأستاذ عشماوي يجلس وحده على غير عادته. واعتبر توفيق وجود الأستاذ وحده فرصة هيأتها له السماء ليستطلع رأيه في هذه المشكلة التي تنغص عليه حياته. وبعد أن شرب القهوة مال على أذن الأستاذ وهمس له بما يقلقه، ولزم الأستاذ الصمت فترة من الوقت راح أثناءها يعض على شفتيه العليا ويرعش حاجبيه ويشفط أنفاسا عميقة متلاحقة من السيجارة. ثم قال:

ـ وانت خايف من إيه يا أستاذ توفيق؟

ورد توفيق على سؤال الأستاذ عشماوي:

ـ أنا مش خايف، بس أنا راجل محاسب وأحب أعمل حساباتي قبل أي خطوة أقدم عليها يا أستاذ.

وقال الأستاذ وهو يضغط على الكلمات:

ـ شيء جميل، بس حسابات الحياة تختلف كثيرا عن حسابات

البنوك والشركات. وبعدين شخصية عامة زيك ما يصحش تقدر البلا قبل وقوعه.

ـ يعني عاوزني أستنا البلا لحد ما يقع.

وأرعش الأستاذ حاجبيه بعصبية شديدة وقال:

ـ ويقع ليه، مش ممكن يحصل العكس. والراجل صاحبك ده ربنا ينفخ في صورته هو والجماعة اللي معاه وينهضوا بالبلد الغلبانة دي، مش يمكن ربنا يجعل تحقيق الخير على إيديك يا أستاذ توفيق وبعدين لما يكون جنب الراجل المسئول شخص زيك إنت، مش أحسن ما يلزق له حد من الصنف التاني اللي لا ذمة ولا ضمير.

ثم صمت لحظة قبل أن يقول:

ـ لكن انت عرفت إزاي إن صاحبك دا مسئول كبير؟ منه هوه؟

هز توفيق رأسه بالنفي. فسأله الأستاذ:

ـ إنت متأكد؟

هز توفيق رأسه بالإيجاب.

في تلك اللحظة كان حضرة الضابط قد غادر سيارته وأقبل عليهما، وعندما صافح توفيق وجده في حالة ليست على ما يرام، فسأله:

ـ إنت مريض واللا إيه يا توفيق؟

وأجاب الأستاذ عشماوي على سؤاله:

ـ دا شوية برد، بس توفيق محتاج يغير هوا.

ـ بسيطة، روح اقعد لك أسبوع في أسوان.

ـ وهاروح إزاي بس؟

ـ يا سيدي حتدبر، ما تعتلش هم.

ـ أنا قصدي هاجيب وقت منين، دنا حتى إجازتي خلصت.

ـ ودي كمان مالكش دعوة بيها.

وتدخل الأستاذ في الحديث قائلا لتوفيق:

ـ يا أخي إنوي بقى، وإذا كان لازملك ونيس أنا مستعد أروح معاك.. وبعدين أنا بقالي زمن طويل ما شفتش أسوان.

وقال الضابط على الفور:

ـ خلاص اتفقنا.. أنا حادبر كل حاجة، واعملوا حسابكو تسافروا بعد بكرة.

وحاول توفيق الكلام، ولكن الضابط أشار له بالصمت قائلا:

ـ مش عاوز كلام كتير، إحنا اتفقنا.

وأضاف الأستاذ عشماوي:

ـ أنا مع حضرة الضابط.. إنت محتاج للرحلة دي يا توفيق. على الأقل عشان تفكر بهدوء وفي جو هادئ.

ونظر توفيق نحو الأستاذ الأديب نظرة عاتبة، فقد تصور أنه سيكشف ستره للضابط، ولكن الأستاذ واصل كلامه قائلا:

ـ أصل توفيق في رأسه حاجات كتير حلوة وعاوزينه يطلعها.

وختم الضابط الحديث قائلا:

ـ أهو دا اللي إحنا محتاجينه، ودا كمان اللي إحنا عاوزينه.

* * *

في القطار الذي أقلهما إلى أسوان وجد الاثنان فرصة للحديث في موضوعات شتى. كان توفيق شديد القلق من مخاطر الرحلة المقبلة، خصوصا والمغامرة ليست من طبعه. وهو يفضل الحياة في الظل مع الأمان، على الوقوف تحت الشمس مع احتمال تعرضه للأذى في أي وقت. أدرك الأستاذ عشماوي ما يعتمل في نفس المحاسب، فانبرى يهدئ من روعه قائلا:

ـ خوفك ده مالوش أي مبرر، وراجل زيك أنت كان لازم يفرح لأن الأقدار هيأت له هذه الفرصة التي قد لا تتكرر. والحياة كما تعلم يا صديقي هي فرصة واحدة إما أن تدركها وتتشبث بها وإما أن تمر بك وتمر عليك! ثم إنت خايف من إيه؟ وهيحصل إيه؟ ها يخدوك السجن كام يوم أو كام أسبوع.. وفيها إيه؟ عرابي انسجن واتنفى وسعد زغلول حصل له نفس الشيء، وغاندي اللي خلق الهند الحديثة قتلوه. وما فيش حلاوة من غير نار يا أستاذ توفيق. ثم إنت راجل فيك مواهب كثيرة وعندك استعداد حقيقي لخدمة

الناس، والدليل على ذلك اشتراكك في كل الانتخابات اللي جرت في مصر. يبقى موقفك الأخير دا مش منسجم مع حركتك السابقة، مش كده وللا إيه؟

لزم توفيق الصمت وراح يفكر في كلام الأستاذ عشماوي. هل يترك نفسه لاقتحام المجهول وليكن ما يكون؟ أم يستجيب لطبيعته فيعتذر لصديقه؟ وهل هو صحيح مهيأ لهذه المهمة كما قرر الأستاذ عشماوي؟ وإذا كان هو كما وصفه الأستاذ عشماوي، فلماذا لا يشعر هو نفسه بأنه هذا الشخص الذي يراه الأستاذ عشماوي وهو الأديب والمفكر الكبير؟ وهل يكذب الأستاذ عشماوي أم يقول الحقيقة؟ ثم.. لماذا يكذب الأستاذ عشماوي وهو في غنى عن الكذب؟ إنه رجل يتمتع بشهرة عريضة ودخله لا بأس به وهو موضع تقدير واحترام الجميع. مضى الأسبوع كلمح البصر لم يشعر المحاسب توفيق بانقضاء الزمن إلا وهو يعد حقائبه استعدادا للسفر. كان أسبوعا ممتعا لم يذق توفيق مثله من قبل، وكان للأستاذ عشماوي فضل في مضاعفة المتعة بحديثه الشيق ورؤيته العميقة لأحوال الناس والحياة. واستطاع الأستاذ عشماوي أن يغير كثيرا من أفكار توفيق. فما الذي يمنعه بالفعل من خدمة الناس من خلال صديقه صاحب النفوذ؟ وما هو الضرر في وجود رجال من ذوي النوايا الطيبة حول أصحاب المسئولية والقرار. في القطار العائد إلى القاهرة لم يتبادل الصديقان الحوار إلا في فترات متقطعة، كأنه لم يكن هناك داع للكلام بعد أسبوع حافل لم يتوقفا فيه عن الحديث وتبادل الآراء. انهمك توفيق

بعد الرحلة في إجراء إصلاحات واسعة في مكتبه الذي كان قد أهمله منذ افتتاحه قبل ذلك بعشر سنوات. وأنفق عليه أموالا كثيرة ليليق بالدور الذي سيقوم به في المستقبل القريب، وجهز مكتبا لصديقه العشماوي، وبدأ يتردد على المكتب بانتظام بينما صديقه الأستاذ عشماوي كان يأتي بين الحين والآخر. وذات مساء رن جرس الباب وكان الفراش قد غادر المكتب إلى بيته منذ دقائق وقام توفيق ليفتح الباب بنفسه على أمل أن يكون الأستاذ عشماوي هو الطارق. ولكن دهشته كانت كبيرة عندما وجد نرجس أمامه. نرجس مرة أخـرى.. يا للهول على رأي يوسف بك وهبي. وتجولت نرجس ببصرها في أرجاء المكتب وانبهرت بروعة الديكور وفخامة الأثاث، وقالت له وهي تغمز بعينها:

ـ إنت نويت تفتح شركة وللا إيه؟

ورد عليها توفيق بلهجة عادية:

ـ لأ.. أنا نويت أبقى محاسب؟

ـ الله.. أمال إنت كنت إيه الأول؟

ـ أنا كنت محاسب على سبيل التذكار. ذهب توفيق إلى المطبخ وعاد ومعه زجاجة مياه غازية وجلسا على مقعدين متجاورين وقالت له وهي ترتشف بعض قطرات من الزجاجة.

ـ يعني ما عملتليش حاجة يا توفيق؟

ـ أنا تحت أمرك قولي أعمل إيه؟

ـ يا راجل قلت لك توصي صاحبك يعملي الخدمة البسيطة دي ودي مش ح تكلفه حاجة غير تليفون، وإن كان على حق التليفون أنا مستعدة يا سيدي.

ـ إنت يظهر عندك معلومات مش مضبوطة، إذا كان قصدك على صاحبي الراجل الضابط اللي كان زميلي في ثانوي أحب أقولك إنه راجل غلبان زي حالتنا.. ويبقى كتر خير الدنيا لو عرف يخدم نفسه. ولزمت نرجس الصمت فترة.. ثم قالت وهي تحدق في عينيه:

ـ عيبك إنك فاهم نفسك ناصح والناس كلها بلهاء، صاحبك الغلبان ده يا توفيق يقدر يعمل من الفسيخ شربات.

ـ ومعلوماتك دي منين؟

لأ.. ده سر حربي بقى ما أقدرش أقولهولك.

ـ لأ أنا عاوز أعرف بصحيح.. وبعدين دي مسألة تهمني جدا، لأن أنا سألته سؤال مباشر فأنكر تماما أي حاجة زي كده.

لأ.. إنت عارف زي ما أنا عارفة بالضبط.. وأنا مش طالبة المستحيل.

ـ تعرفي يا نرجس.. أنا من ساعة ما قولتيلي الحكاية دي الدور اللي فات وأنا دماغي مقلوبة.. إذا كان كلامك صحيح طيب بينكر ليه؟ قالت بعد أن رسمت على شفتيها ابتسامة ذات معنى:

ـ هو ما أنكرش ولا حاجة إنت اللي بتنكر.

ـ تاني يا نرجس. بقولك صدقيني مرة في حياتك.

ـ أنا عاوزاك إنت اللي تقول الصدق مرة في حياتك.

ـ يعني أنا في رأيك كذاب يا نرجس؟

ـ لأ ما انتش كذاب ولا حاجة.. إنت بس عامل ناصح.

ـ طيب فهميني إزاي!!

أشعلت نرجس سيجارة وشدت نفسا عميقا ثم قالت:

ـ إنت مش كنت في أسوان الشهر اللي فات.

بهت المحاسب توفيق.. كأنها ضبطته عاريا.. وقال بصوت خافت:

ـ آه صحيح.

ـ ومش كان معاك الأستاذ عشماوي صديقك؟

ـ دي فيها إيه؟

ـ يعني ما فيش فايدة فيك.

وهمت بالوقوف استعدادا للانصراف ولكن توفيق جذبها بشدة وأعادها إلى مقعدها وقال لها بعصبية:

ـ شوفي بقى.. إحنا مش بنعمل فوازير وأنا مش فاضي للألغاز دي قولي لي إنت عرفتي إزاي إن إحنا سافرنا أنا والأستاذ عشماوي؟

ـ أنا أصلي فاتحة فرع مع المخابرات الإنجليزية.

قالتها وضحكت ضحكة ممطوطة تحمل أكثر من معنى، وانفعل توفيق بشدة وقال لها وقد بدا عليه الاضطراب:

- لا صحيح إنت عرفتي إزاي؟

- يا سلام.. بسيطة.. ناس شافوكو هناك.

- طيب شافوني وعرفوني هناك لكن إيش عرفهم بالأستاذ عشماوي؟

- إذا كنت عاوز الصراحة يا توفيق. هما عرفوا الأستاذ عشماوي وبعدين عرفوا إنك معاه. الأستاذ عشماوي أديب ومعروف.. مش كده وللا إيه!

ونهضت نرجس واستأذنت في الخروج وقبل أن يفتح المحاسب توفيق فمه بكلمة ألقت نظرة على ساعتها وصاحت ياه دا أنا اتأخرت قوي!

وحاول توفيق أن يبقيها بعض الوقت ولكنها تمسكت بالخروج وقالت في لهجة ودية:

- حا زورك مرة تانية.. بس بشرط.

- وإيه شرطك يا ستي؟

- يكون صاحبك خلص موضوعي.. وتأكد أنه مش ح يتكلف حاجة غير تليفون.

كان المحاسب توفيق ونرجس قد وصلا إلى الباب عندما دق

جرس الباب فتحه، وعندما فتحه وجد الأستاذ عشماوي حاملا في يده لفافة، ووقف عشماوي ينظر بإعجاب إلى نرجس وهو يلعق لسانه ويرعش حاجبيه.

وقالت نرجس وهي تشير نحو العشماوي.

ـ الأستاذ العشماوي مش كده!

وأحنى العشماوي رأسه وقال:

ـ تمام يا افندم.

وأشار توفيق إلى نرجس وقال:

ـ الأستاذة نرجس.. محاسبة وزميلتي في الكلية.

وقال العشماوي وقد بدا الاستنكار على وجهه:

ـ يا توفيق حرام عليك، قول تلميذتك مش زميلتك.

وضحكت نرجس وقالت للعشماوي:

ـ أنا متشكرة على المجاملة اللطيفة دي.

وقال الأستاذ عشماوي:

ـ دي مش مجاملة يا افندم أنا باوصف اللي باشوفه.

ـ لأ ده أنت لطيف قوي يا أستاذ عشماوي.. وعلى العموم أنا قرأت لك كتير وما كنتش متصورة إنك لطيف للدرجة دي.

شعر توفيق بشيء من الغيرة فقال لها:

ـ ياله بقى علشان ما تتأخريش.

فمدت يدها وصافحت توفيق.. ثم صافحت الأستاذ عشماوي وغادرت المكتب وقال توفيق لعشماوي:

ـ إيه اللي معاك ده!

ـ ده فطير مشلتت يستاهل بقك.

حاول عشماوي فتح الورقة التي بين يديه ولكن توفيق منعه من ذلك متعللا بأنه لا يأكل مثل هذه المعجنات ليلا ثم مضى أمامه نحو مكتبه وقال:

ـ أنا عاوزك في حكاية لكن ملخبطاني.

ـ إنت دايما متلخبط يا توفيق.. أنا عاوزك تاخذ المسائل بهداوة وما تنزعجش لأي سبب.. المسائل كلها بسيطة وحلها أبسط منها. وعاوز أقولك أنا عندي لك خبر يساوي عشرة مليون جنيه!

١٣ـ الفطير المشلتت!

جلس توفيق أمام الأستاذ عشماوي يستمع إليه في اهتمام. حاول عشماوي فتح اللفافة التي تحوي الفطير المشلتت، ولكن عشماوي توقف عن ذلك بعد أن صرخ توفيق في وجهه صرخة مدوية، وبأسلوب يكشف عن مدى غضبه الشديد الذي لا يتناسب مع الموضوع الذي وقع الخلاف بشأنه. ولذلك دقق عشماوي النظر في وجه توفيق وقال:

ـ إنت إيه حكايتك بالضبط؟

ـ مالها حكايتي.. فيها إيه؟

ـ أنا شايف إنك عصبي أكثر من اللازم، وحكاية الفطير ما تستاهلش الزعيق دا كله.

ـ أنا مازعقتش.. أنا صوتي كده.

ضحك الأستاذ عشماوي ضحكة طويلة وقال لتوفيق.

ـ على العموم مش مشكلة، خلينا في المهم أحسن.

ـ وياريت تخش في الموضوع بسرعة لأن أنا تعبان قوي.

وقال الأستاذ عشماوي متهكما:

ـ الله يكون في عونك، شوف يا سيدي.

وراح عشماوي يشرح الموضوع لتوفيق الذي لم يتحمس في البداية، فالسر الذي كشفه عشماوي يحتمل الاهتمام به أولا، والأستاذ عشماوي نفسه أحيانا يقول ما يستحق الاهتمام، وغالبا يكون مجرد خرافات وأوهام. ولكن الذي استرعى اهتمام توفيق هو قول عشماوي إنه اتفق مع الضابط على البدء في تكوين خلية صغيرة من خمسة أشخاص يمثلون قوى الشعب العامل.

غريبة!! اتفق معه متى وأين؟ هل يقابل عشماوي الضابط من وراء ظهره؟ وهل يثق الضابط في عشماوي بشكل أكبر من ثقته في صديقه القديم توفيق؟ ولكن هذا النبأ وإن كان مثيرا إلا أنه كان عاديا بالنسبة لتوفيق، أما الأمر الذي هزه هزا وكاد يفقده وعيه، فهو الاقتراح الذي قدمه عشماوي في سياق حديثه.

ـ وأنا شايف يا توفيق ضرورة الإسراع في تشكيل هذه الخلية، عندنا الضابط وأنت وأنا ونرجس وعاوزين عامل معانا كمان وتبقى المسألة تمام.

وانفجر توفيق فجأة وصاح مستنكرًا:

ـ وإيه علاقة نرجس بموضوع زي ده؟

ورد عشماوي ببرود:

ـ علاقة متينة جدا، أولا واحدة ست، وأي تنظيم محتاج لعنصر نسائي، ثانيا مثقفة وواعية جدا، ثالثا جماهيرية وعلى علاقات حسنة ومتوازنة بالجميع، رابعا وخامسا وعاشرا.. دي زميلتك وصديقتك أيضا.

ولكن توفيق لم يهدأ ولكنه ازداد هياجا، وصاح بصوت عال وهو يغادر مكتبه في حالة قرف شديدة.

ـ وأنا بصراحة لا علاقة لي بأي تنظيم فيه الست دي. وبعدين يا أستاذ عشماوي يكون في علمك أنا لن أسمح لأي مخلوق باستغلال مكتبي إلا في الأغراض بتاعتي، المحاسبة وبس.

اندفع توفيق كالإعصار خارجا من المكتب، وعشماوي يحاول اللحاق به. وفي الشارع تذكر عشماوي أنه ترك لفة الفطير المشلتت على المكتب، وحاول إعادة توفيق إلى المكتب، ليس للتفاهم حول مستقبل التنظيم، أو لإعادة رسم خريطة الوطن ولكن من أجل استعادة الفطير فقط، الله يلعنك يا توفيق يا بن الهايفة، ضيع على الأستاذ عشماوي الاستمتاع بلقمة الفطير المشلتت التي صنعها الحاج محمد الدمياطي بنفسه وبالزبدة الدمياطي التي ليس لها مثيل في الكون. ولم يكن هناك سبب لهذا الغضب الذي انتاب توفيق إلا غيرته الشديدة، فهو يحب نرجس ولكن شخصيته وعقده النفسية تجعل بينه وبين صنف النساء ساترا غير منظور، فهو يحبها ولكن ليس بما فيه الكفاية، وهو يشعر بغيرة شديدة عليها ولكنه لا يعلن ذلك ولا يسمح لأحد بأن

يكشف سره. وهو يعلم تمام العلم أن الأستاذ عشماوي أكبر منه سنا وأقل منه وسامة وأناقة، ولكنه يقدم بضاعة جيدة هي الكلام، فهو كلمنجي من طراز رفيع، كما أن شهرته تمهد له الطريق إلى قلوب السيدات. ولا بد أن اقتراحه بتشكيل اللجنة وضم نرجس إليها هي مكيدة من مكائده هدفها الوحيد اصطياد نرجس ليس إلا، ولكن توفيق لن يسمح بذلك حتى لو أدى الأمر إلى قطع علاقته بكل ما يربطه بحياته الجديدة، والعودة إلى سابق عهده.. ومهما تكن النتائج. فهو لن يسمح بأن يكون جسرا للعشاق أو ممرا للمنافقين والانتهازيين.

اعتكف توفيق في منزله عدة أيام، فاضطر الأستاذ عشماوي إلى زيارته في منزله، واستبدت الدهشة بالمحاسب توفيق عندما وقع بصره على الأستاذ عشماوي يقتحم عليه غرفته وفي يده باقة ورد متعددة الألوان. لا يغيظ توفيق في الأستاذ عشماوي إلا عدم إحساسه وبروده. وبعض الناس يتصور أن هذا البرود هو من سمات الشخصية القوية. ولكن نظرة توفيق لعشماوي كانت تختلف عن نظرة الآخرين. فعشماوي مجرد همباك مخادع وكسول وكذاب أيضا، عرف أجزاء من هنا وهناك، ولكنه يعرف كل شيء وهو نصاب يطمع في أموال النساء اللاتي يقعن في غرامه. وتوفيق سيكشفه ويفضحه إذا حاول الإيقاع بنرجس.

ولكن توفيق أخفى مشاعره ورحب بالأستاذ عشماوي عندما وجده أمامه في غرفته. صحيح أن ترحيبه به كان فاترا، ولكن

عشماوي انطلق كعادته فراح يسرد على مسامع توفيق كل الأحداث التي وقعت في مصر خلال فترة مرضه، وقص عليه بالتفصيل ما جرى في قهوة كتكوت، ثم زف إليه بشرى موافقة صديقه الضابط على اقتراحه بتشكيل هذه الخلية التي تحدث معه بشأنها. والكارثة الكبرى أن عشماوي حدد يوم الأربعاء القادم للجلسة الأولى وسيكون الاجتماع في مكتب المحاسب توفيق الساعة الثامنة مساء.

لا حول ولا قوة إلا بالله، عشماوي أصبح صاحب الأمر والنهي في كل شيء حتى بالنسبة لمكتبه. غمغم توفيق بكلمات غير مفهومة ثم قال:

ـ واشمعنى مكتبي يعني، ما تقعدوا في أي حتة تانية، ثم دا مكتب عمل وأكل عيش وفيه زباين بتجيلي في الساعة دي وبعدين أعمل أنا إيه معاهم، أعتذر لهم؛ لأني عندي اجتماع. المفروض إن إحنا نقعد بعيد عن مكاتبنا.

ولم يفاجأ الأستاذ عشماوي باعتراض المحاسب توفيق فقال:

ـ أنا شخصيا كنت عامل حساب المسألة دي، ولذلك افترض إن إحنا ننقل الاجتماع من مكتبك بعد كده، وهيكون الاجتماع الثاني في بيتي أنا، والاجتماع الثالث هيكون عند مدام نرجس.

ورد المحاسب توفيق بعصبية:

ـ يبقى عند نرجس إزاي دي ست متجوزة وبعدين جوزها يقول

إيه. وهوه معقول تاخد معاها أربعة رجالة طوال عراض وتروح لجوزها تقول إيه. دا كلام فارغ ما حدش يوافق.

ورد الأستاذ عشماوي بهدوء:

ـ وإذا كانت هية موافقة. ورحبت بالفكرة لما عرضتها عليها.

ـ إمتى وافقت؟

ـ إمبارح. وبالعكس.. تحمست جدا للفكرة وقالت ياريت تعملوا الاجتماع عندي على طول. وعلى فكرة.

ونطق عشماوي العبارة الأخيرة كأنه يمهد للكشف عن سر خطير.ثم تابع قائلا:

ـ صاحبك ريحها على الآخر. وتم نقلها من المكان اللي هيه فيه، واستلمت منصبها الجديد.

ـ منصب إيه الجديد ده؟ ثم مين صاحبي ده؟

حضرة الضابط، بتليفون منه نقلها من المكان اللي بتشتكي منه، وأصبحت الآن عضوا في المكتب الاستشاري للسيد رئيس الجهاز.

ـ ومين اللي قال للضابط؟ هيه نرجس؟!

ـ لأ طبعا.. أنا اللي قلتله.

يادي المصيبة الكبرى اللي حطت على دماغك يا توفيق.. هكذا أصبح عشماوي هو همزة الوصل بين الضابط وبقية الناس.

ـ طيب وإنت شفت نرجس فين؟

فأجاب عشماوي على السؤال ببساطة.

ـ في بيتها.. على فكرة.. الراجل جوزها مدهش للغاية، واكتشفت أنه قارئ عظيم وذواقة كمان. تصور قرأ لي روايتي «نهر بلا مصب» واكتشفت أنه فهم الرسالة اللي أنا عاوز أوصلها. مع إن قلة قليلة اللي فهمت المعنى اللي أنا عاوز أوصله. تصور أن أنا لقيت كل كتبي عنده في المكتبة، وعامل على الهوامش ملاحظات في غاية الأهمية، ولقيت هناك خلاف بينه وبين نرجس على بعض الملاحظات، وقعدنا نتكلم إحنا الثلاثة ومع ذلك ما عرفتش أحل الخلاف؛ لأن كل واحد عنده حججه ووجهة نظره، ووعدتهم لازم نعمل قاعدة تانية وتالتة لحد ما نوصل لحل. الحقيقة إنه بيت مدهش وأسرة جميلة تستاهل كل خير.

عندما انتهى عشماوي من حديثه كان توفيق في حالة يرثى لها كمن أصيب بضربة قاضية. لم يعلق بشيء ولم ينطق بحرف. عشماوي استطاع التسلل إلى بيت نرجس وصار فردا من العائلة. وبالطبع سحرهم بحديثه وبهرهم بشهرته. ونرجس ناعمة ورقيقة وحالمة. وهو يعلم تماما أنها قبلت الزواج من زوجها بدون حب، ولكنها ارتضت به بهدف تكوين أسرة وبناء بيت، وسيكون عشماوي بمثابة المشهيات التي تفتح النفس، فيكون لها زوج هو رب البيت وعشيق يجعل الحياة سهلة وهنية ويساعد على استمرار الحياة. يا للكارثة التي ليس لها مثيل، وتوفيق كالعادة سيخرج من

المولد بلا حمص. كانت هذه حالته دائما بسبب تردده وخوفه وعدم قدرته على خوض المعارك في اللحظة المناسبة. ما العمل الآن وقد ضاع منه كل شيء، صديقه الضابط وحبيبة القلب نرجس وسيكون مجرد عضو على الهامش في الخلية التي يسيطر عليها عشماوي ويوجهها إلى الجهة التي يريدها، ولكن هذا لن يكون، ولن يمر عشماوي إلى هدفه إلا على جثة توفيق. وعندما طلب عشماوي منه أن يكون حاضرا في استقبالهم مساء الأربعاء حيث تقرر عقد الاجتماع في مكتبه، اعتذر توفيق عن عدم حضوره؛ لأنه يشعر بأن مرضه سيطول، ثم مد يده بمفتاح المكتب قائلا له:

ـ على العموم المكتب مكتبك وإنتو فيكو البركة، وأنا قلبي معاكو، واللي يريده ربنا هيكون.

ومد عشماوي يده والتقط المفتاح، ثم قال لتوفيق.

ـ إن شاء الله على يوم الأربع هتقوم زي السكة الحديد وهتحضر معانا، عشان نبدأ الانطلاقة ونعمل اللازم وكل شيء هيكون على ما يرام.

وقال توفيق وهو يصطنع المرض:

ـ على كل حال أنا حاسس بنفسي وحاسس إن أنا تعبان قوي.
ورد عشماوي معقبا:

ـ على كل حال حاول، وإذا ما قدرتش تقوم إحنا هنجتمع في الميعاد وبعديها هنيجي نزورك هنا ونبلغك باللي حصل. وبعدين

إحنا مش هنجتمع مرة واحدة وبعدين كل واحد يروح لحاله، دي هتبقى رفقة زي رفقة السلاح، يعني جواز كاثوليكي من غير طلاق.

وضحك الأستاذ ضحكة عالية وقال وهو يستأذن في الانصراف:

- بس نصيحة لك من أخوك حبيبك بلاش تستسلم للمرض، لأن الاجتماع الجاي دا اجتماع تاريخي ويتوقف عليه حاجات كتير قوي، ولو حسيت إنك عيان بصحيح يبقى نكلم صاحبك الضابط يدخلك مستشفى عسكري؛ لأن الخدمة هناك تمام والدكاترة تمام وبعدين مش هاندفع حاجة.

يا للصفاقة التي ليس لها مثيل، يقولون إن الأديب حساس.. أين هي الحساسية التي يتمتع بها هذا الرجل. تصوروا هو الذي سيتكلم مع الضابط صاحبي. الضابط صاحبي أنا ولكن هو واسطتي إليه! طيب.. كيف؟ وبأمارة إيه؟ ولكن كله كوم ودخوله بيت نرجس كوم آخر. ليه يا نرجس يا بنت الناس؟ توليت ذبح العبد لله مرتين، مرة في البداية ومرة في النهاية. ولكن من الملوم في هذا الأمر؟ لقد كانت في البداية طوع إشارة منك يا توفيق، ولكنك جبان ومتردد ولا تحسن التعامل مع النساء. وفي هذه المرة جاءت إليك بنفسها وطلبت منك أن تتدخل مع الضابط صاحبك؛ لكي ينقلها إلى عمل مريح ولكنك غطرشت وأهملت. ساذج أنت يا توفيق ولن تجد لنفسك مكانا تحت الشمس. وهذا هو العشماوي قدمته لصديقك الضابط فجلس على العرش وتربع. هو الذي قام بتشكيل اللجنة

وهو الذي حدد أعضاءها، وهو الذي اختار نرجس باعتبارها ممثلة للمرأة، وهو الذي اختار مكتبي أنا ليكون محلا مختارا للجنة. ماذا تبقى لك يا توفيق؟ وإلى متى تظل حبيس شرنقة نفسك؟ وهل ستقنع حتى نهاية العمر بموقف المتفرج؟ وهل ستدع أستاذ عشماوي يمر ويستمتع بكل شيء؟ بينما تبقى محلك سر وتذوب كالشمعة حسرة وأسفا؟

بسبب القلق والأرق لم يذق توفيق طعم النوم حتى أشرقت الشمس، ثم صلاة المغرب. وبالرغم من أنه نام طويلا إلا أنه لم يستطع النهوض من الفراش، شعر بجفاف شديد في حلقه وبألم شديد في مفاصله وبتكسير في عظامه واستدعت أمه الطبيب فاكتشف أن حرارته مرتفعة، وأنه مريض بالحمى ويحتاج علاجه إلى وقت طويل.

عندما فتح توفيق عينيه بعد ثلاثة أيام كان غارقا في بحر من العرق، وكأن بعينيه غشاوة فلم يستطع أن يتبين ملامح الذين أحاطوا بسريره. ولكنه بعد لحظات اكتشف أن المحيطين بسريره هم صديقه الضابط والأستاذ عشماوي ونرجس ولكن دهشته تضاعفت عندما رأى الواد ريعو جرسون قهوة كتكوت يجلس بينهم، وما الذي جاء بالولد ريعو هنا، لا بد أن المعلم كتكوت أرسله للاطمئنان على صحته. وتمالك توفيق نفسه ونهض أو بمعنى أصح حاول النهوض، ولكنه فشل في ذلك فاكتفى بوضع عدة وسائد تحت رأسه وراح يجفف عرقه بفوطة كبيرة، ثم طلب

من أمه كوبا من مشروب النعناع، ولكن نرجس تطوعت بإعداد كوب النعناع. وعندما حاول الأستاذ عشماوي أن يلحق بها إلى المطبخ للمساعدة، شخط توفيق في عشماوي شخطة أعادته إلى مقعده بدون تعليق. ونظر توفيق إلى عشماوي ثم نظر مرة أخرى إلى ريعو ثم سأله:

ـ المعلم كتكوت بعتك؟

وتدخل عشماوي في الحديث وقال لتوفيق:

ـ أولا الحمد لله على سلامتك.

ثم أشار نحو ريعو وقال:

ـ دا العامل اللي قلتلك عليه.

ولم يَبْدُ على توفيق أنه فهم شيئًا، ولكنه عندما حاول أن يفتح فمه، نظر عشماوي إلى ريعو وأشار له بالخروج قائلا له:

ـ قوم يا ريعو إنت روح القهوة شوف شغلك. وأجاب ريعو بسرعة:

ـ أنا ما عنديش شغل الليلة دي أنا في إجازة.

ـ زي بعضه روح إنت الوقت وبعدين هابقى أتصل بك.

وقف ريعو استعدادا للرحيل. وقبل أن يذهب ألقى سؤالا على عشماوي.

ـ والاجتماع الجاي إمتى؟

ـ أنا هابقى أبلغك.

ـ وهنا في بيت المحاسب توفيق برضه؟

ـ بعدين هاقولك.. بعدين.

تساءل توفيق:

ـ إيه اللي جاب ريعو معاكو؟

ـ ما هو دا العامل أللي قلتلك عليه.

ـ عامل إيه؟ مش فاهم.

ـ العامل اللي هينضم للخلية بتاعتنا.

هب توفيق من فراشه مذعورا وقال:

ـ يا خبر إسود.. ريعو في الخلية. ورد عشماوي قائلا:

ـ وفيها إيه؟

ـ دا جرسون، يعني خدام مش عامل تجيبوا خدام في الخلية؟

نفخ عشماوي بحرارة ثم قال:

ـ إنت نظرتك للناس نظرة طبقية فوقية وحقيرة للغاية، إنت يا توفيق لا تصلح في العمل السياسي على الإطلاق.

كانت نرجس قد انتهت من عمل كوب النعناع. وكانت أصوات توفيق وعشماوي تتصاعد في فضاء الحجرة ويتردد صداها بين الجدران. في نفس اللحظة التي دخلت فيها نرجس الحجرة،

كانت ثورة توفيق قد بلغت مداها، فلم يشعر بنفسه وهو يلتقط كوب النعناع ويقذف به نحو الحائط. وانكسر الكوب وتطايرت شظاياه في كل اتجاه، وأصابت الشظايا وجه نرجس وسال الدم على خدها وأسرع الأستاذ عشماوي يمسح الدم بمنديل انتزعه من جيبه، وصرخت نرجس من شدة الألم، وهرعت الأم إلى الحجرة تستطلع ما جرى، وجن جنون توفيق فصرخ في وجه عشماوي ونرجس يأمرهما بمغادرة المنزل وضربت الأم صدرها بيدها وصاحت.

ـ يا عيب الشوم يا بني إيه اللي جرالك يا توفيق!

وقال عشماوي في صوت مهذب.

ـ مفيش حاجة يا ست الحاجة، دا من تأثير الحرارة العالية اللي كانت عند توفيق.

واستفزت هذه العبارة توفيق بشدة فازداد هياجه وارتفع صياحه، واستبد الخوف بنرجس فولت هاربة إلى الشارع وصاح توفيق بجنون:

ـ أنا مش م الصنف دا يا أستاذ عشماوي قال إيه خلية قال، دا شغل بولوتيكا دا، وجايبين واحد جرسون للخلية، خلية يا عشماوي يا نصاب، والله العظيم لافضحكم فضيحة بجلاجل. قال إيه قوى الشعب العامل الشعب العامل واللا الشعب الجرسون. يا بتوع التلات ورقات يا ولاد شيكا بيكا. وفتح توفيق الشباك وراح يصرخ

في الشارع صرخات هستيرية، بينما كان يتصبب عرقا بشدة واستأذن الأستاذ عشماوي من الحاجة وخرج مسرعًا. ومن قهوة كتكوت اتصل بالضابط وبعد ساعة كانت سيارة إسعاف تقف أمام بيت توفيق، وعندما انطلقت عائدة كان بداخلها المحاسب توفيق في طريقه إلى مستشفى المجاذيب!

١٤ـ السفيرة عزيزة!

بالطبع لم يكن مسموحا لأحد من النساء دخول قهوة كتكوت. ولكن فتاة واحدة كان لها هذا الحق وكان اسمها عزيزة، كان من حقها دخول القهوة والطواف على الزبائن وعرض ما تحمله من أوراق اليانصيب ولم يحدث في أي وقت أن أحد الزبائن كسب شيئا من وراء عملية شراء أوراق اليانصيب خصوصا التي توزعها عزيزة ولكن بعض الزبائن ظلوا مواظبين على شراء أوراق اليانصيب من عزيزة، حتى المعلم كتكوت نفسه كان يسعد برؤيتها، وأحيانا كان يغمز بعينه للواد ريعو الجرسون ليقدم لها واحد حلبة حصى، وهو المشروب الذي كانت تفضله عزيزة ومقابل الواحد حلبة حصى كانت عزيزة تشارك الواد ريعو في تنظيف القهوة وكنس الرصيف وأحيانا كانت تشارك عم عبده القهوجي في غسيل الأكواب بعد إغلاق القهوة أما عزيزة نفسها فكانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، جسمها (متفصل).. ـ كما كان يقول ريعو ـ لها وجه مليح وابتسامة حلوة، وكانت لها غمازتان تظهران بوضوح على خديها كلما ابتسمت، وكان الواد ريعو يضرب جبهته بكفه ويقول في لوعة (يا سلام لو تفرج

يا جدعان) وكان عم عبده القهوجي يسأله في استفزاز هتعمل إيه يعني؟ ويرد الواد ريعو قائلا:

ـ هتجوز عزيزة ونعيش سوا في التبات والنبات.

ـ هو انت لاقي تحلق!

ـ مانا بقولك لما تفرج..

ـ وهتفرج منين.

ـ ورقة يا نصيب تكسب البريمو.

وكانت شلة الأدباء التي تجلس على قهوة كتكوت هم أفضل الزبائن عند عزيزة، كتب شاعر شاب منهم قصيدة بعنوان.. عزيزة.. وقرأها أمامها كادت تطير فرحا. وقال لها أستاذ الفن الشعبي عكاشة ذات مرة.

ـ إنت فيك شبه كبير من عزيزة المزاتية.

ـ عزيزة مين دي يا أستاذ أنا والله ما أعرفها.

وقال لها الأستاذ عكاشة مطمئنا:

ـ عزيزة المزاتية شخصية من شخصيات التغريبة الهلالية.

وتلفتت عزيزة حولها، ثم أسرعت بالانصراف، ولم تفهم شيئا وكان الوحيد من شلة الأدباء الذي يضايقه وجود عزيزة هو الأستاذ طلبة، وهو الموظف بمصلحة الكهرباء ومواظب على كتابة قصص قصيرة، ولكنه لم ينجح في نشر أي قصة منها، فقد كانت

القصة من النوع الذي يأخذ طريقه بسهولة إلى سلة المهملات. ولما اشتد به اليأس أصدر مجموعة قصص على حسابه بعنوان «الهاوية» ونشر صورته على الغلاف وقد وضع قبضة يده تحت ذقنه وكتب تحت الصورة اسمه «الأستاذ طلبة عبد الستار»! ووزع بعض نسخ المجموعة على بعض المكتبات بالجيزة وكان يسأل أصحابها بين الحين والآخر عن مصير النسخ ولكنه كان يصدم في كل مرة بأن النسخ مكانها لم تنقص نسخة واحدة في أي يوم. وكان أحيانا عندما تجمعه مناسبة مع بعض الأدباء الشبان يتساءل في ضيق شديد:

ـ ما هو السر في اشتهار بعض الأدباء وذيوع صيتهم، بينما يصيب بعض الأدباء الأفول ويلفهم الصمت ويذهب إنتاجهم هباء وكان يتحمس دائما للشاعر إسماعيل عبد الواحد، ويؤكد أنه لا يقل قامة عن الشاعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم! ولم يفصح الأستاذ طلبة في أي وقت عن شخصية الشاعر إسماعيل عبد الواحد، ولم يكشف في أي وقت عن نماذج من شعره، وكان الأستاذ طلبة يجلس صامتا في حضور الأدباء المشاهير، ولكنه كان يتبجح في الكلام عندما يكون جالسا مع بعض الأدباء الشبان أو عند حضور عزيزة ببضاعتها من أوراق اليانصيب، وكان يعتب أحيانا على الأدباء احتفالهم بهذه البنت الصايعة، وكان ينسب إلى أوراق اليانصيب سر ضعف الناس وعميق صبرهم؛ فهذه الأوراق تجعلهم في حالة انتظار للمجهول الذي يأتي فجأة فيحل مشاكلهم كلها ويوفر الحياة الكريمة لصاحب النصيب، ثم حدث

ذات عصرية أنه جاء مبكرا على غير العادة وجلس على رصيف القهوة وكان الجو حارا والقهوة خالية تقريبا من الزبائن عندما جاءت البنت عزيزة تحمل أوراق اليانصيب، وعندما اقتربت من مكان الأستاذ طلبة واكتشفت أنه هو الجالس هناك، فرت هاربة كغزالة اكتشفت وجود الصياد على مقربة منها، نادى عليها الأستاذ طلبة بصوت عال فتوقفت ونظرت نحوه مندهشة وقالت في صوت ملون بالخوف.

ـ أنا يا بيه؟

ـ فيه حد غيرك هنا اسمه عزيزة؟

وزحفت عزيزة نحوه وهي تتوجس شرا حتى أصبحت على مسافة قريبة من مجلسه، ولكنه أشار إليها بالاقتراب أكثر، ولأول مرة في حياته ترتسم على فمه شبح ابتسامة مما شجع عزيزة على الاقتراب، ومد يده نحوها وأخذ أوراق اليانصيب منها وراح يلقي عليها نظرة، ولكنه تعمد أن يلمس يدها بأصابعه، ثم راح يختلس النظر إليها من فوق لتحت، البنت فعلا ملفوفة ولولا بعض الشحوب الذي يبدو على وجهها من سوء التغذية لكانت أحق البنات بلقب السفيرة عزيزة، اختار الأستاذ طلبة بعض أوراق اليانصيب وأعطاها ثمنها وفوقه قرشين بقشيشا لها وعندما قالت له إنها تقاضت أكثر من حقها، أجابها وهو يبتسم:

ـ إنت تستاهلي كل خير يا ست عزيزة.

ست عزيزة مرة واحدة.. ما هو سر التغير الذي طرأ على الأستاذ

طلبة؟ لقد كان ينظر إليها شزرا ويرسم على وجهه علامات الغضب كلما رآها، وتمنت عزيزة أن تفوز إحدى الأوراق التي اشتراها ليستمر التعاون بينهما على هذا النحو، وأصبح من عادة الأستاذ طلبة أن يحضر كل يوم في هذا الوقت المبكر لكي ينفرد بعزيزة ولكن عزيزة لسوء الحظ اختفت في الأيام الثلاثة الأولى، ثم ظهرت في اليوم الرابع، وعندما اقتربت منه جاءت تتقصع وقد أضاء وجهها بابتسامة عريضة، واستقبلها الأستاذ طلبة مرحبا وسألها عن سر غيابها في الأيام الماضية، فردت بأنها كانت تشعر بالتعب وكان صوتها مبحوحا كأنها تعاني من نزلة برد، ثم تناول ورقة يا نصيب وأعطاها ورقة بخمسة قروش، ولما مدت له يدها بالباقي أزاح يدها وقال لها:

ـ اشتري برتقال واعصريه وخديه مع أسبرين عشان البرد يروح

ثم ابتسم وقال:

ـ مش عاوز أشوفك عيانة، اللي زيك حرام يعيا.

ابتسمت عزيزة في دلال، وقبل أن تغادر القهوة وقفت على الرصيف وألقت نظرة على الأستاذ طلبة فاكتشفت أنه يتفرس فيها بطريقة أشاعت الخوف في نفسها، ولكنها مع ذلك ابتسمت له ابتسامة مشجعة ثم مضت واختفت عن الأنظار.

ما الذي غير موقف الأستاذ طلبة من عزيزة؟ وماذا يريد منها على وجه التحديد؟ يا سلام لو طلبها الأستاذ للزواج وعاشت معه في شقة كبقية النساء. لقد قضت عمرها كله تحلم برجل

مثل الأستاذ طلبة ينتشلها من هذا الشقاء الذي لا تبدو له نهاية، ويخلصها من أمها العمياء التي تقضي الوقت كله في عراك مع أبيها أحيانا بسبب وأغلب الوقت بلا أسباب، وأبوها الشيال الذي يقضي نهاره على رصيف المحطة بحثا عن لقمة العيش، ويقضي جانبا من ليله في الحانة التي تقدم البوظة للزبائن وعندما يعود مخمورا تدب الخناقة بينه وبين زوجته العمياء ولا تنفض الخناقة إلا بعد أن تنتهي الزوجة من تفتيش هدومه والاستيلاء على القروش القليلة التي تبقت معه.. أما إخوتها الذكور فهم صياع وإن كانوا يساهمون بمجهودهم العضلي في مصروف البيت، فهم يقومون بخطف كل أنواع الخضراوات من عربات الكارو التي تنقل خيرات الريف من الحقول إلى سوق الخضار بالعاصمة، وأحيانا يحصل العيال على أكثر من حاجة البيت فيقومون بعرض ما سرقوه للبيع على الرصيف المجاور لمسكنهم. أما المسكن فهو لا يمت للمساكن بصلة. إنه إسطبل خيول يملكه شيخ عربجية الجيزة، وقد سمح للرجل الشقيان والد عزيزة بالسكن فيه بدون أجرة إكراما للمرأة الكفيفة زوجته ومن يومها والعائلة تسكن مع حصانين وبغل وعدة حمير. ولكنه وضع أفضل من النوم على الرصيف. يا سلام يا ناس هل يأتي يوم يكون لعزيزة شقة خاصة وتليفزيون وستارة على النافذة وكنبة تجلس عليها لتشاهد البرامج يمكن للحلم أن يتحقق لو تزوجت من الأستاذ طلبة، صحيح أن فارق السن كبير، ولكن..
ما دخل السن في السعادة كان الوقت مساء عندما وصلت عزيزة إلى القهوة، وكان الجو حارا، وشلة الأدباء تجلس على الرصيف

ومعهم الأستاذ طلبة، وقدمت الأوراق بيدها للأستاذ وتعمدت أن ترسم على شفتيها ابتسامة عريضة، ولما لم ينتبه الأستاذ طلبة لوجودها إلى جانبه، مدت يدها وقرصته في كتفه، فلما وقع بصره عليها ظهر الغضب الشديد على وجهه وثار ثورة عارمة، واستبد الذعر بعزيزة ففرت هاربة بينما صوت الأستاذ طلبة الغاضب يطاردها، الأمر الذي شد انتباه الزبائن الجالسين على الرصيف، مما دفع أحدهم إلى ملاحقة البنت والقبض عليها والعودة بها إلى حيث تجلس شلة الأدباء ظنا من الرجل أن البنت سرقت شيئا من متعلقاتهم، غير أن الأستاذ عكاشة شكر الرجل الطيب الذي طاردها وأشار عليه بإطلاق سراحها، وطيب خاطر البنت وأخرج من جيبه بعض الأوراق المالية، وعندما حاول إعطاءها لعزيزة رفضت بشدة وانخرطت في بكاء شديد، وفي ذلك المساء عاتب الأستاذ عكاشة صديقه الأستاذ طلبة لمسلكه الغريب مع البنت عزيزة خصوصا وأن غضبه الشديد لم يكن له مبرر أو سبب وقد اعتذر بشدة عما بدر منه تجاه عزيزة، وبرر موقفه بأنه متوتر الأعصاب بسبب مرض أخته الوحيدة التي تعاني من إصابة بالسرطان بالرغم من أنها لا تزال شابة وأما لطفلين، ووعد الجميع بالاعتذار لعزيزة وتعويضها عما سببه لها من إيذاء.

مضت أيام كثيرة قبل أن يلتقي طلبة بعزيزة في قهوة كتكوت وعندما وقع بصره عليها نهض من مكانه واتجه نحوها، ولكنها تجمدت في مكانها واستبد بها الذعر وهمت بالفرار. ولكن الابتسامة العريضة التي ارتسمت على شفتي الأستاذ طلبة بعثت

الطمأنينة في نفسها فتوقفت مكانها وعندما اقترب طلبة منها ربت على كتفها وأبدى اعتذاره الشديد لها، كان طلبة لطيفا مع عزيزة إلى الدرجة التي قبلت اعتذاره وذهبت معه إلى حيث يجلس وعرضت عليه أوراق اليانصيب واختار منها ثلاث ورقات ثمنها ثلاثة قروش، ثم نقدها عشرة قروش وترك لها الباقي على سبيل البقشيش، ووقفت عزيزة تدعو للأستاذ طلبة بالصحة وطول العمر، وصفق الأستاذ طلبة بشدة وعندما جاء الواد ريعو طلب منه واحد حلبة حصى لعزيزة وعندما انصرف ريعو تناول الأستاذ نسخة من كتابه وناولها لعزيزة، وعندما شاهدت صورته على الغلاف استبدت بها الفرحة الشديدة لدرجة أنها أطلقت زغرودة وسألته بسذاجة:

- همه كاتبين عنك في الجرنال ده.

وشرح لها الأستاذ طلبة الأمر، فهذا الذي قدمه لها هو كتاب من تأليفه وصورته منشورة على الغلاف باعتباره المؤلف، وأرعشت عزيزة حاجبيها وقالت بأسف:

- يا خسارة يا ريتني كنت أعرف أقرأ وأكتب.

ورد الأستاذ طلبة قائلا:

- دي مسألة بسيطة وسيبيها عليَّ أنا!

لم تلفت نظرها عبارة الأستاذ طلبة الأخيرة، فشكرته بشدة على كرمه وعلى الواحد حلبة حصى، وانصرفت إلى داخل القهوة واتخذت لنفسها ركنا على يمين (النصبة) حيث جاء الواد

ريعو بكوب الحلبة الحصى. ولما شاهد ريعو النسخة من كتاب الأستاذ بين يدي عزيزة اختطفه من بين يديها وراح يتفرس في صورة الأستاذ، ثم أعاد النسخة إليها وجرى مسرعا إلى حيث يجلس طلبة، وطلب منه نسخة أخرى (زي اللي مع البنت عزيزة) ولكن الأستاذ طلبة اعتذر لعدم وجود نسخ أخرى معه، ولكن ريعو أشار إلى كومة منها موضوعة على المائدة الموجودة أمامه، ولكن الأستاذ طلبة اعتذر مرة أخرى؛ لأنها جميعا مهداة إلى بعض النقاد وعليها إهداءات شخصية بأسمائهم، ووعده بإهدائه نسخة له مع إهداء منه شخصيا، ولكن الولد ريعو لم يقتنع بهذا الكلام ووقف يصرخ بصوت عال أمام الأستاذ طلبة.

ـ بقى تدي البنت الصايعة دي كتاب وأنا لأ، هيه إيه الحكاية؟ على الأقل أنا باعرف أفك الخط وعزيزة دي ما تعرفش السما م العمى، هيه كوسة!! واستفزت كلمة كوسة الأستاذ طلبة فنهض من مكانه ليضرب الواد ريعو بالقلم على وجهه، وصرخ ريعو بطريقة مبالغ فيها، وكأن الأستاذ طلبة أطلق عليه رصاصة، فخرج المعلم كتكوت بنفسه لمعرفة حقيقة الأمر وبادره الأستاذ طلبة شاكيا له قلة أدب الواد ريعو وعدم تربيته فلطش المعلم كتكوت الواد ريعو قلما على قفاه، فقد كان المعلم يؤمن بالنظرية الاقتصادية التي تقول (الزبون دائما على حق) ولكن ريعو صاح مرة أخرى محتجا على تصرف المعلم قبل أن يعرف أصل الحكاية، وتساءل المعلم قائلا:

ـ وإيه أصل الحكاية ياد؟

وقال ريعو والدموع تلمع في عينيه:

ـ يا معلم أنا ما عملتش حاجة الأستاذ عنده كتاب عليه صورته، خدت عزيزة كتاب منهم، جيت طلبت منه كتاب مارضيش. قلت له تدي كتاب لعزيزة الجاموسة وأنا لأ، راح ضاربني بالقلم.

هرش المعلم في ذقنه النابتة وقال للأستاذ طلبة:

ـ كتاب إيه دا يا أستاذ؟

ـ دا كتاب من تأليفي أنا يا معلم، وبعدين أنا كنت شخطت في البنت عزيزة وحبيت أصالحها فأهديتها نسخة، يقوم الواد اللي ما عندوش أدب يقوللي قدام الناس إيه شغل الكوسة ده؟ أنت يرضيك الكلام

ـ حقك عليَّ، هوه أصله مسحوب من لسانه، لكن حقك عليَّ أنا، امسحها في دقني أنا.

وسحب المعلم الواد ريعو من يده ودخل القهوة، ثم سأله: كتاب إيه يا واد؟

ـ وأنا إيش عرفني أنا يا معلم، أهو كتاب بيقول إنه هوه اللي كتبه وتفرس المعلم في وجه البنت عزيزة وقال لها:

ـ وريني الكتاب دا يا بت.

وناولته الكتاب في صمت، وجلس المعلم على مقعده الدائم

في مواجهة (النصبة) وتفرس بعض الوقت في صورة الأستاذ طلبة، ثم راح يقلب صفحات الكتاب ببطء في البداية ثم بسرعة بعد ذلك ولما استعرض صفحات الكتاب أغلقه ووضعه أمامه وقال لريعو:

ـ وإيه اللي عاجبك في الكتاب؟ دا كله كلام مالوش لازمة، لا واحدة عريانة ولا صورة حلوة، وبعدين تقوم تقل أدبك ع الأستاذ، مش هتبطل قلة أدبك دي.

وبينما المناقشة محتدمة بين المعلم والجرسون انسحبت البنت عزيزة من القهوة في هدوء وغادرت الميدان كله واختفت في زحام شارع عباس ولمدة أسابيع مرت والولد يحكي ما حدث بينه وبين الأستاذ طلبة، وعن الكتاب الذي أهداه الأديب الأستاذ طلبة للبنت عزيزة بتاعة اليانصيب وعندما حكى القصة للشيخ شهاب كبير الأدباء أضاف إليها أنه ضبط الأستاذ أكثر من مرة وهو ينظر إلى البنت عزيزة نظرات من إياها، دا راجل كبير لكنه مش مظبوط ثم هوه فاهم إيه؟ دنا لو قلت للراجل أبوها دا ممكن يقتلها ويشرب من دمها، يمكن يقتله هو راخر ولما سمع الشيخ شهاب بالحكاية ضرب كفا بكف وقال ساخرًا:

بقى الأستاذ طلبة رفض يديني كتاب ويدي البنت عزيزة! وقال ريعو للشيخ شهاب:

ـ الحقيقة يا مولانا الشيخ كل الأدباتية اللي بيقعدوا هنا ناس محترمين، إلا طلبة دا، طبعه حاجة ثانية، وبلاش الواحد يتكلم.

ولما شجعه الشيخ شهاب على الكلام قال ريعو:

ـ أقول إيه بس يا مولانا، طب وحياة دي النعمة (وأشار إلى كوب الشاي) أنا شايفه بعيني دي اللي هياكلها الدود، وهو بيطبطب على البنت.

ـ قدام الناس يا واد يا ريعو؟ دا معقول؟

ـ ما كانش فيه ناس يا عم الشيخ، كان هوه بس اللي ع الرصيف، وواحد فلاح كان قاعد بعيد وبيشرب دخان.

وغاب الأستاذ طلبة فترة من الوقت، فلم يشاهده أحد في القهوة واختفت البنت عزيزة أيضًا فلم يعد يشاهدها أحد في أي مكان ولكن الأستاذ طلبة ظهر فجأة وحول رقبته كرافتة سوداء، فقد انتقلت أخته إلى رحمة الله بعد صراع طويل مع المرض، وعاتبه أصدقاؤه من شلة الأدباء وقال الأستاذ عكاشة:

ـ طيب اتصل بأي واحد منا، أو انشر نعيًا في الجرايد.

ورد الأستاذ طلبة قائلا:

ـ والله يا إخواني أنا كنت في حالة سيئة للغاية، إنتو عارفين إنها أختي الوحيدة، واضطررت إلى دفنها في قريتي مع والدتها حسب وصيتها، والحقيقة أنني كنت في حالة دوخة أشد من دوخة السكران، والكارثة أنها تركت لي طفلين لا أعرف كيف أتصرف معهما، وهذا هو السبب الذي جعلني ألازم شقتي لا أبارحها إلا

للشديد القوي لقد انتهت حياة الفرح والمرح وجاءت أيام الشدة والتعاسة.

وقال له الأستاذ الشيخ شهاب:

ـ ما عليك يا رجل، فلا أنت أول من واجه مثل هذه الكوارث ولن تكون آخرهم.. المهم أن تنهض من بين أنقاض المصائب وتواصل الحياة من جديد. وتساءل الأستاذ طلبة قائلا:

ـ كيف يا سيدنا الشيخ؟ إن الكلام سهل كما تعرف ولكن الواقع صعب!

وانبرى الشيخ شهاب يقول بحماس شديد:

ـ لو أنا مكانك في هذه الورطة كنت أتزوج من بنت غلبانة تريد الاستقرار وترغب في الستر، تكون قريبة إلى قلبي ومربية للأطفال الأيتام الذين تركتهم المرحومة أختك. وأظن أن دخلك يحقق لك هذه الأهداف.

ـ وأين هذه البنت يا مولانا الشيخ؟ وأنت تعرف بنات هذه الأيام اللواتي يشغفن بالموضة وبالسينما والأغاني والحفلات.

ـ أنا لا أقصد هذه النوعية من البنات يا سيد طلبة أنا أتكلم عن بنات من نوع آخر، بنات يحلمن بحياة مستقرة وكريمة وكل ما يبحثن عنه هو الستر في ظل رجل طيب وبار ويستطيع حمايتهن.

ـ ومن أين لي بهذه البنت يا عمنا الشيخ؟

ـ البنت عزيزة بياعة اليانصيب.

ألقى الشيخ شهاب الذي كان يهوى النكتة ويحب المزاح بهذه القنبلة التي هزت القهوة هزا، وثار الأستاذ ثورة غطت على كل شيء في القهوة حتى صوت الراديو وصاح الأستاذ طلبة: لم يعد غير هذا الولد الصايع ريعو يؤثر فيك يا عمنا الشيخ؟ أنت رجل الدين والفقه والمنطق تتأثر بكلام هذا الواد التافه؟ يا له من زمن قبيح ورديء يا عم الشيخ، لو سمع كلامك أحد من الصالحين من أهل زماننا لصاح على الفور.. الآن بطن الأرض خير لنا من ظهرها.

كانت الضجة قد جذبت الكثيرين من داخل القهوة إلى الرصيف وكان من بينهم المعلم كتكوت والولد ريعو أيضًا وما إن وقع بصر الأستاذ طلبة على ريعو حتى ثار بشدة وهدد بإبلاغ الشرطة لقيامه بتلويث سمعته ونشر الإشاعات ضده مع سبق الإصرار والترصد، ثم نظر إلى المعلم كتكوت وقال:

ـ وانت كمان يا معلم كتكوت عاجباك عمايل الواد الصايع ده؟ عاجباك الإشاعات اللي عمال ينشرها ضدي، حتى الشيخ شهاب صدق الكلام بتاعه؟ وعلى كل حال ـ يا معلم ـ أنا أو الواد ده في القهوة.

ثم ألقى السلام على شلة الأدباء وانصرف غاضبا. وحاول المعلم أن يعتذر لأفراد الشلة، وعلل بعضهم سر ثورة الأستاذ بظروفه الصعبة بعد موت شقيقته، وعلق الأستاذ عكاشة قائلا:

ـ بسبب إن الواد ريعو غلطان ولازم يتأدب.

وقال المعلم في صوت خفيض:

ـ أنا مش ممكن أخللي جرسون قليل الأدب عندي، بس إنتو عارفين الظروف، النهاردة الزبون كتير الحمد لله، بس الصنايعي مفيش، عشان كده ولاد الكلاب افترواع الآخر، والواد ريعو بقى يبوق في وشي دلوقت.. كان يستجري الصنايعي يبص في عيني وأنا باكلمه، الدنيا اتغيرت يا بيه ثم وعد شلة الأدباء بالذهاب للأستاذ طلبة في أي مكان ويعتذر له عما بدر من الواد ريعو، وقال واثقا من نفسه:

ـ وهاخد الواد ريعو معايا وأخليه يبوس إيده ورجله كمان!

وقال الأستاذ عكاشة:

ـ المسألة مش محتاجة بوس الإيد والرجل. إحنا حنسترضيه بس الواد ريعو لازم يتحاسب يا معلم، وإذا تكرر منه هذا العمل سنتضامن جميعا مع الأستاذ طلبة.. أنا بقولك أهه!

ولما كان للأستاذ عكاشة وضع خاص عند المعلم كتكوت فقد قال المعلم:

ـ إيدي على كتفك يا سعادة البيه، هاتلي جرسون تاني وأنا هاطرده دلوقت، ولكن الشيخ شهاب كان له رأي آخر، قال بصوت غير مسموع:

ـ وهو ريعو عمل إيه بس؟ إحنا ما نجيش إلا ع الفقير؟! كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل، فقام الجميع وانصرف كل منهم إلى بيته.

١٥ـ عزيزة وطلبة!

غابت شلة الأدباء عن قهوة كتكوت ثلاثة أيام كاملة. لم يعرف أحد سبب غيابهم، ولكن المعلم كتكوت تصور أن غيابهم كان وراء تصرف الواد ريعو مع الأستاذ طلبة، وانتهز المعلم فرصة تعثر الواد ريعو وسقوط الصينية التي كان يحملها على كفه وتحطم ما عليها من أكواب. واندفع المعلم نحوه كالثور الهائج ولطمه لطمة شديدة على وجهه جعلت الشرر يتطاير من عين ريعو.

وقال له المعلم وهو يسب الأخضرين:

ـ شاطر تطفش الزباين وكمان تكسر الكوبيات، ما تغور في داهية يا أخي وتريحني من وشك.

وانزوى ريعو خلف باب القهوة مخفيا عينه المتورمة بقبضة يده. وتركه المعلم في وقفته ولم يبد أي اهتمام به، وراح يحمل الطلبات بنفسه إلى الزبائن. ولما شعر بالتعب واستبد به الغيظ توجه نحو مخبأ الواد ريعو وفي نيته ضربه علقة من النوع الذي أوصى به سيدي حسان اليماني. ولكن دهشته كانت كبيرة عندما لم يجد ريعو خلف الباب. وخطف المعلم نظرة خاصة على القهوة كلها ولم يلمح أي

أثر لريعو، فاقتحم النصبة وفتشها وفتش المخزن الملحق بها ولم يعثر على ريعو ووقف المعلم عند باب النصبة وراح يضرب كفا بكف ويتساءل بصوت عال:

ـ راح فين ده؟ الأرض بلعته. ثم قال مهددا:

ـ طيب يا ريعو الكلب بس لما عيني تقع عليك!

عانى المعلم كتكوت كثيرا بعد غياب الواد ريعو.. ولام المعلم نفسه بشدة عندما عادت شلة الأدباء إلى القهوة واكتشف أن غيابهم لم يكن له علاقة بما وقع بين الأستاذ طلبة وريعو. واستعان المعلم بزبون للقهوة أبدى رغبته في المساعدة، وهو موظف سابق على المعاش، وكان عليه دين للقهوة بلغ عدة جنيهات فشل في تدبيره عدة شهور، ولعله وجدها مناسبة لإرضاء المعلم، وفي الوقت نفسه كانت فرصة له لمعاودة شرب الشاي الذي حرم نفسه منه فترة طويلة، وبالطبع لم يكن أحد يضيف ثمن هذا الشاي على الحساب القديم، وعندما طلب منه المعلم أن يستريح شاكرا له خدماته، رد بانفعال:

ـ أنت يا معلم طول عمرك بتخدم الناس، فيها إيه لما نخدمك.

ولكن لا المعلم ولا الموظف المتطوع نجحا في سد الفراغ الذي تركه الواد ريعو. ولذلك قرر المعلم آخر الليل أن يدوس على كبريائه وأن يذهب في الصباح إلى حيث يسكن ريعو ليجره من يده إلى القهوة، حتى لو اضطر المعلم إلى لطع بوسة على رأس الواد ريعو، والاعتذار له عما بدر منه!

في الصباح الباكر شق المعلم طريقه عبر شارع عباس إلى «المقلب» وراح يغوص في تلال الزبالة بينما سد منخريه بأصابعه ليبعد عنه الروائح الخبيثة المنبعثة من المكان. وبعد أن دق على الباب عدة دقات أوجعته راح ينادي بصوت عال على الواد ريعو ولكنه لم يتلق جوابا على الإطلاق. وفي النهاية أطلت الحاجة صاحبة البيت وأبلغت المعلم بأن الواد ريعو لم يحضر إلى البيت منذ عدة أيام، وعبثا حاول المعلم أن يعرف من الحاجة أي معلومة عن المكان الذي ذهب إليه ريعو ولكن دون جدوى. عاد المعلم أدراجه مخترقا نفس الطريق الذي سلكه في الصباح، وشعر بالغيظ الشديد يأكل قلبه، لقد خذله الواد ريعو وأنكر فضله. فهو الذي التقطه من الشارع وهو الذي سمح له بالمبيت في القهوة عوضا عن الشارع، ثم علمه صنعته التي احترفها بعد ذلك. ولكن أين يعثر على ريعو الآن؟ وما العمل لضمان حسن سير العمل في القهوة؟

تحولت مشكلة ريعو إلى مشكلة عامة، حتى شلة الأدباء قضوا السهرة كلها في الحديث عن مشكلة ريعو. ووصفها الشيخ شهاب بأنها مشكلة حقيقية تعاني منها مصر كلها في الأزمنة الحديثة، وقال إنه في شبابه اعتاد القعود على قهوة المعلم السروجي، وخلال عام واحد تعامل مع ثلاثين جرسونا بواقع ثلاثة جرسونات كل شهر. وكانت أي غلطة يرتكبها الجرسون تؤدي إلى فصله. وكانت يومية الجرسون عشرة قروش والوردية تستغرق ١٢ ساعة وأحيانًا أكثر. ومع ذلك كان الجرسون يقضي وقتا طويلا أمام المعلم يستعطفه

ويتوسل إليه أن يبقيه في العمل. كان العاطلون على قفا من يشيل، وكان من بينهم من يقبل أجرا أقل من عشرة قروش في اليوم. اليوم تغيرت الأحوال وأصبح العامل هو سيد الموقف، وأصبح المعلم هو الذي يستعطف العامل ويتوسل إليه. وختم الشيخ شهاب حديثه قائلا:

ـ إنها علامة من علامات الآخرة.

ولم يكن غياب الواد ريعو فقط هو الذي أدى إلى هذا الانقلاب في روتين قهوة كتكوت، ولكن غياب الأستاذ طلبة هو الآخر لفت إليه الأنظار خصوصا في محيط شلة الأدباء. فمنذ ذهب الأستاذ طلبة غاضبا من تصرفات الواد ريعو لم يقع بصر أحد عليه، حتى الأستاذ الشيخ شهاب مر عليه في منزله ذات يوم ودق عليه الباب ولكنه لم يتلق جوابا، ولم يعطه البواب جوابا شافيا عن السر في غيابه. وإذا كان غياب الواد ريعو مبررا بسبب اعتداء المعلم عليه وعلى مشهد من الزبائن، فما السر في غياب الأستاذ طلبة؟ هل تصرف ريعو معه يؤدي إلى قطيعة نهائية بينه وبين القهوة؟

يا لها من أيام أسود من قرون الخروب مرت على المعلم كتكوت، في كل يوم يظهر في القهوة جرسون جديد، ويمضي اليوم كلشنكان ولكن في المساء تدب الخناقة بين الجرسون والمعلم كتكوت ـ صابر حسنين لم يحتمل ملاحظة أبداها المعلم فخلع الفوطة وترك القهوة وأسرع إلى الشارع وغاب في الزحام. ولكن

تصرف الواد حسنين كان مختلفا، عندما صرخ المعلم كتكوت في وجهه طالبا منه في لهجة آمرة:

ـ ما تتلحلح يا واد وانت واقف زي الحمار المجروح كده والزباين قطعت إيديها م التسقيف.

رد الواد حسنين قائلا:

ـ أنا مش حمار يا معلم أنا بني آدم زيك وعيب تقل أدبك قدام الزباين ورد المعلم وعلامات الشر بادية على وجهه:

ـ أنت بترد عليَّ يا واد؟

ـ بقولك إيه؟ فوق لنفسك، إنت راجل كبير في السن واحفظ أدبك، ورب الكعبة أخللي اللي ما يشتري يتفرج عليك.

عند هذا الحد لم يستطع المعلم السيطرة على نفسه، اندفع نحو الواد حسنين ولطمه على وجهه لطمة قوية، وفي غمضة عين كان الواد حسنين قد حمل المعلم بين ذراعيه وألقى به على الأرض، ثم خلع الفوطة ورماها على المعلم الممدد على الأرض، ثم بصق عليه وغادر القهوة وهو يبرطم بكلام غير مفهوم. وضع المعلم كتكوت ذراعه في الجبس بعد هذه «الوقعة» التي حطمت عظام جسمه، واكتفى بالقعود على مقعد مريح على رصيف القهوة وتغيرت أحواله فلم يعد يتدخل في أي موضوع ولم يعد يتكلم مع الآخرين ولكن حدث بعد شهر من كسر ذراعه ما جعل المعلم كتكوت يعود إلى طبيعته المشاغبة. فقد جاء عبد الحفيظ إلى القهوة

ليعمل جرسونا ليوم واحد. وهمس في أذن المعلم بسر خطير. إن الولد ريعو هرب مع البنت عزيزة وتزوجا ونزحا إلى الإسكندرية حيث يعمل ريعو في مقهى شهير هناك، ويعيش الزوجان معا في حي غيط العنب، يا الله لم يلتفت أحد إلى غياب البنت عزيزة بياعة اليانصيب. ولم يربط أحد في القهوة بين غيابها وهروب الواد ريعو. وثلاثة أيام كاملة والمعلم يهذي كالمجنون.. وهو يدور حول نفسه فوق رصيف القهوة:

ـ صحيح، تربي الكلب ينفعك، تربي البني آدم يقلعك!

قال له الشيخ شهاب ذات مرة:

ـ وناوي تعمل إيه يا معلم؟ هتفضل تولول كده زي الأرملة.

ـ هو مين؟ دنا هاجيبه لو كان في بطن أمه.

كان واضحا أنه يقول هذا الكلام من غلبه. وأنه رجل عاجز وغلبان ومهزوم أيضا، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا سوى الانتظار والكلام ولكن الموظف السابق الذي عمل جرسونا في وقت سابق ليضمن الحصول على الشاي قعد مع المعلم ذات صباح وأقنعه بأنه قادر على الوصول إلى الملهى الذي لجأ إليه الواد ريعو وزوجته.

ـ ما دام قاعد في غيط العنب يبقى اطمئن يا معلم.

تساءل المعلم في لهفة:

ـ إزاي يعني؟

ـ ما هو أنا في مبدأ حياتي اشتغلت في إسكندرية وسكنت في غيط العنب وأعرف كل الناس هناك، ويبقى حظنا كويس لو كان المعلم أبو عوف لسه عايش.

ـ مين أبو عوف دا؟

ـ دا راجل زي حضرتك كده. الناس كلها تهابه وتعمل له ألف حساب، زي ما تقول فتوة غيط العنب يعني، وراجل طيب ويخدم الناس لوجه الله، لو كان عايش هيجيبه من تحت تقاطيق الأرض.

ـ وأنت تعرفه الراجل ده؟

ـ دا صاحبي الروح بالروح، ماكانش يقعد ولا يشرب الشاي ولا يفطر الصبح بدري إلا مع محسوبك.

ـ طيب إنت فاضي تيجي معايا المشوار ده.

فكر الموظف السابق بعض الوقت ثم قال:

ـ وحتى لو مشغول أفضي نفسي عشانك يا معلم.

واتفق المعلم كتكوت والموظف السابق على السفر إلى الإسكندرية. ولكن قبل يوم واحد من السفر فاجأ المعلم كتكوت الموظف السابق بأنه صرف النظر عن السفر معه إلى الإسكندرية لأنه يحتاجه فيما هو أهم من السفر. وتساءل الموظف السابق:

ـ خير يا معلم.

ـ أنا مش هلاقي أحسن منك ياخد باله م القهوة.

ـ مش فاهم يا معلم.

ـ مانت عارف.. أنا وحداني لا ورايا ولا قدامي ـ هسيب القهوة وأمشي هتتاكل، والناس ما بقاش في قلوبهم رحمة، وانت عارف الزباين وعارف العيال. الكل شغالين في النصبة إنت اقعد باشر القهوة وهاديلك خمس جنيهات كل يوم.

ـ من غير فلوس يا معلم، بس انت عارف الدنيا بقت غالية أد إيه وع العموم أنا خدامك. بس برضه عاوز أقولك إن سفري معاك كان أحسن.

ـ أنا أصلي من غير مؤاخذة قابلت الضابط مصطفى شمعة اللي كان في المباحث هنا في الجيزة، ودلوقت هو في إسكندرية ولما عرف حكاية الواد ريعو والبنت عزيزة قالي لي تعالالي إسكندرية وأنا هاجيبولك. وفعلا خد مني صورته واسمه بالكامل ونمرة البطاقة بتاعته، وإن شاء الله ربنا هيكرمني.

غادر المعلم كتكوت مصر إلى الإسكندرية، وقعد الموظف السابق مكان المعلم يدير القهوة بطريقة أفضل، وغاب المعلم عدة أيام قبل أن يعود إلى الجيزة، ولكنه عاد وقفاه يقمر عيش كما وصفه عم عبده الصنايعي الذي يباشر العمل في النصبة.

ـ وعملت إيه يا معلم في إسكندرية؟

ـ الراجل الظابط كتر ألف خيره عمل بأصله. بس الواد ريعو

مالوش وجود في غيط العنب ولا في إسكندرية كلها، يظهر الواد اللي نقل لنا الخبر دا كداب.

ـ وناوي تسكت يا معلم؟

ـ مين دا؟ هوه هيروح مني فين، دا لو كان عند العفاريت الزرق برضه هاجيبه.

طلب المعلم من الموظف السابق أن يواصل مهمة الإشراف على القهوة؛ لأنه قرر التفرغ للبحث عن ريعو، وبالفعل خطف رجله في اليوم التالي إلى بيت عزيزة والتقى مع أبيها الذي كانت رائحة البوظة تفوح منه، وعندما سأله عن عزيزة هب صارخا:

ـ ما عنديش بنات هنا وماليش بنت اسمها عزيزة.

ـ أصل أنا سمعت إنها...

وقاطعه والد عزيزة بحركة عصبية قائلا:

مش عاوز أسمع أي حكاية عن عزيزة، وأنا ما عرفش حد اسمه عزيزة، ولا كان عندي حد اسمه عزيزة.. وكفاية كده يا معلم بقى، عشان أنا اللي دهاني مكفيني.

ـ لم يستطع المعلم أن يصل مع والد عزيزة إلى شيء. فآثر السلامة وعاد إلى القهوة وقد تأكد أن الأبواب كلها مغلقة، وأن الواد ريعو اختفى من حياته إلى الأبد. ولكن الجرسون عبد الحفيظ الذي همس في أذن المعلم ذات صباح بأن ريعو والبنت عزيزة في غيط العنب جاء إلى القهوة مرة أخرى حاملا نبأ جديدا ومثيرا.

ـ البنت عزيزة يا معلم بتيجي تشوف أهلها أول كل شهر. وبتيجي يا معلم شايلة ومبضعة ولابسة موضة وحالتها معدن خالص.

لم يكذب المعلم الخبر فقرر أن يرابط عند أحد البقالين أصدقائه بالقرب من مسكن أسرة عزيزة وثلاثة أيام كاملة والمعلم مربوط على مقعد أمام البقالة مدعيا للبقال صديقه أن الولد ريعو لهف إيراد القهوة لمدة شهر كامل وفص ملح وداب وكاد يفقد الأمل في العثور على عزيزة، ولكن ربنا أراد للمعلم أن ينجح في مسعاه في آخر لحظة. فقد ظهرت البنت ثالث يوم في الشهر. ويا سبحان الله.. كم تغيرت عزيزة، الذي لا يعرف أصلها يتصور أنها بنت ذوات أو خوجاية. وجاءت تحمل أشياء كثيرة. ولكن هل تغيرت أحوال ريعو إلى هذا الحد؟ ودخلت عزيزة إلى الإسطبل الذي تقيم فيه وغابت طويلا. ولم تخرج إلا بعد غروب الشمس، وخرج خلفها الرجل الدنف أبوها. ولكنه لم يصاحبها أكثر من عدة خطوات ثم تركها وعاد إلى الإسطبل من جديد.

ونهض المعلم كتكوت وتعقب عزيزة، اخترقت شارع عباس ثم انحرفت ناصية سينما الفانتازيو، ثم خرجت إلى شارع الترومواي ومرت أمام قهوة سان سوسي، ثم دخلت القهوة من الباب المطل على شارع المدارس وخرجت من الباب المفتوح على شارع مراد، وانحرفت يسارا في طريقها إلى حديقة الحيوان.

وقبل أن تقطع مسافة كبيرة لحق بها أحد الأفندية وتبادلا الحديث ثم راحا يقطعان الطريق معا. وأسرع المعلم كتكوت

وراءهما حتى لحق بهما.. يا قوة الله.. مين؟ الأستاذ طلبة.. طلبة وعزيزة لقد كان ينتظر ريعو وعزيزة، ولكن ها هي الحقيقة أمامه عارية بلا غطاء. الأستاذ طلبة وعزيزة، وعزيزة أصبحت أنثى تؤكل مقشرة ولا اللوز الحلبي. ولكن ما العمل الآن؟ هل يمسك بتلابيب عزيزة؟ وما علاقته بعزيزة؟ ثم ما علاقة عزيزة بالأستاذ طلبة؟ هل هو زوجها؟ هذه كلها حقائق لا بد من معرفتها جيدا قبل الإقدام على أي خطوة من هذا النوع؟ المهم أن المعلم تعقب عزيزة وطلبة حتى اختفيا داخل عمارة على شاطئ النيل بالمنيل. وانفجر خبر عزيزة وطلبة في قهوة كتكوت كالقنبلة. وأعلن الشيخ شهاب عن عزمه لزيارة طلبة لكشف حقيقة الأمر. وعلق الشاعر خميس على الموضوع ساخرا:

ـ يظهر إن عزيزة قرأت كتاب الأستاذ طلبة فوقعت في غرام الأستاذ من أول سطر.

وقال الأستاذ عجماوي.

ـ ما حدث ليس الأول من نوعه.. فقد تزوج الفنان المبدع تولوز لوتريلي من بنت بياعة خضار في سوق باريس. وتزوج الشاعر الإنجليزي الكبير بيرون من بنت كانت تقدم الخمور لرواد بار بائس في أثينا. فما هو الغريب في ارتباط طلبة وعزيزة؟

١٦ - البحث عن ريعو

انفجرت حكاية عزيزة وطلبة كالقنبلة في قهوة كتكوت، وكان لانفجارها دوي رهيب في الجيزة كلها. عزيزة تزوجت طلبة، وطلبة اختار عزيزة من بين نساء الأرض جميعا، وعزيزة بنت الإسطبل أصبحت تعيش في شقة على شاطئ النيل. ولكن المعلم كتكوت أقسم بكل المقدسات أن عزيزة تعيش مع طلبة في الحرام، وأنه تزوجها بعقد عرفي، والعقد العرفي - كما أكد المعلم - ليس في شريعة الإسلام.

ولكن عزيزة ليس لها ذنب، الذنب كله هو ذنب الرجل الديوث الخمورجي أبوها، كان يكذب عندما ادعى أنه لا يعرف مكانها وكان يناور عندما ادعى أمام المعلم كتكوت أن البنت لا ترغب في الزواج وهددته بالهروب بعيدا عن أهلها إذا أجبروها على ذلك.. إنه سر في حياة المعلم كتكوت حرص على إخفائه عن الجميع لقد قرر ذات يوم أن يتزوج عزيزة، فهي صبية وشهية وفقيرة ولن ترفض الزواج من المعلم الذي سينقلها من التعاسة إلى الحياة الكريمة

كان المعلم يومها في الواحدة والستين من عمره وكان ممتلئا صحة وشبابا ويشعر بأنه لا يزال في الثلاثين.

ولكن الديوث «أبوها» زعم أن البنت ترفض فكرة الزواج مع أن الرفض كان من جانبه. كان يتطلع إلى أفندي ينفق على عزيزة وينفق أيضا على الأسرة كلها ولكن كل شيء سيعود إلى أصله لو ظهر الولد ريعو؛ لأن ريعو لن يسكت على هذا الوضع الغريب، فهو يحب عزيزة وعزيزة هي الأخرى تحبه، وكان على حق في ثورته يوم إهداء طلبة كتابا لعزيزة. لو ظهر ريعو الآن لفتح كرش الأستاذ طلبة، وبالطبع سيذهب ريعو في الحديد وسيخلو الجو للمعلم كتكوت ليتزوج عزيزة ويأخذها في حضنه وستعيد له شبابه الذي ذهب بالتأكيد. لا شيء يعيد الشباب للعجوز إلا الصبايا في سن عزيزة. وراح المعلم كتكوت يشمشم حول المكان الذي يمكن أن يوجد فيه ريعو، هل ذهب إلى السجن؟ لو ذهب إلى السجن فهو لا بد كان سيتصل بالمعلم؛ لأنه بالتأكيد سيحتاج إلى سجائر وملابس، وعدم اتصاله بالمعلم هو الدليل القاطع على أنه لم يذهب إلى السجن. هل ضربته سيارة على الطريق وفشلوا في معرفة أصله وفصله فدفنوه في مقابر الصدقة؟ ومع ذلك لم يكف المعلم كتكوت عن مساعيه لمعرفة مصير الواد ريعو سأل علي الصعيدي إذا كان يستطيع معرفة وجوده في السجن، وقال علي الصعيدي للمعلم:

ـ اللي زي ده مفيش قدامه غير سجنين.. الاستئناف في باب الخلق أو سجن القناطر؛ لأن اللي زي ده هتكون تهمته إيه؟ جنحة

مفيش حاجة ثانية، يعني سنتين ولا ثلاثة ولازم هيكون في واحد م السجنين دول، وبعد يومين بالضبط هاجيبلك الخبر المظبوط.

وعاد علي الصعيدي بعد أيام بنبأ كان السبب في مضاعفة هموم المعلم كتكوت:

ـ الواد ريعو مالوش أثر في سجن الاستئناف ولا في سجن القناطر!

وأجاب المعلم كتكوت وهو ينفخ:

ـ أمال راح فين الحمار ده؟

ـ الغايب حجته معاه يا معلم.

أهمل المعلم كتكوت القهوة تماما وسلمها للموظف السابق، وانشغل بموضوع عزيزة وطلبة، وأصبح شغله الشاغل البحث عن الواد ريعو وشعر المعلم بالراحة بعض الشيء عندما مر عليه الواد أبو سريع العجلاتي وأخبره بأن الواد ريعو في العراق وأنه رآه بعينيه يعيش في حي المربعة ببغداد.

ـ وبيشتغل إيه هناك ياد يابو سريع.

ـ هيشتغل إيه يعني يا معلم؟ مهندس،؟ أهو زي ما هو.. قهوجي.

ـ وبياخد كام هناك يعني؟

ـ بياخد كويس، وبيحول وبقى معاه دورارات!

ـ وهيه الدورارات ياد تغني الراجل عن الوطن؟

ـ وهو إيه الوطن يا معلم، الوطن اللي تلاقي فيه عدلك.

ـ وهوه كان جعان هنا ياد ولا عريان.

ـ وهيه الدنيا أكل وهدوم بس يا معلم، دا لوقعد هناك سنتين يمكن هييجي تمام، يشوف له مطرح ويتجوز كمان وضحك المعلم ضحكة ساخرة وقال:

ـ يتجوز؟! يتجوز مين، ما هي اللي كان حاطط عينه عليها هربت مع الأستاذ طلبة وقاعدة معاه في الحرام؟

ـ هيه مين دي يا معلم؟

ـ السفيرة عزيزة؟

ـ عزيزة مين؟

ـ عزيزة بتاعة اليانصيب، بنت الراجل الخمورجي اللي ما عنده ذمة ولا دين.

ـ وبتقول هربت مع مين؟

مع الأستاذ طلبة.

ـ الأستاذ طلبة مين؟

ـ دا من الناس اللي ما تعرفهومش إنت، من الجماعة الأدباتية اللي بيكتبوا في الجرايد.

ـ وإيه اللي لم الشامي على المغربي؟

ـ الوعد والمكتوب!!

سكت المعلم فترة وشرد بعيدا ثم سأل أبو سريع.

ـ والواحد يتصل إزاي بالواد ريعو.

ـ لا.. دانت تسافر له بقى، العراق فيها مصريين كتير.

ـ والسفر دا يتكلف كثير؟

ـ حق التذكرة في الطيارة، وميت جنيه في جيبك، إذا كنت ناوي تقعد هناك كام يوم، وبعدين لو عاوز نصيحتي، خد معاك شوية ثوم.

ـ ثوم؟ ليه.. هنطبخ ملوخية هناك؟

ـ أصل الثوم غالي قوي هناك اليومين دول.

ـ وأنا رايح أتاجر.

ـ لامؤاخذة يا معلم، هو إنت اللي مسافر؟

ـ لسه بفكر، أصلي أنا محتاج الواد ريعو قوي، بيني وبينك القهوة خابت بعد ما سافر، والحتة اللي قاعد فيها اسمها إيه؟

ـ المربعة يا معلم.

ـ ولو سألت هناك يدلوني على طول.

ـ دي حتة معروفة يا معلم، زي ما تقول هنا شارع محمد على، الأزهر، فم الخليج، حاجة زي كده يعني.

عاش المعلم كتكوت الأيام التالية يفكر بعمق في خطواته القادمة، لم يدرك المعلم كتكوت أن القهوة تدهورت أحوالها بسبب إهماله لها، إلا عندما راجع الإيراد واكتشف أن الحال ليس على ما يرام ولأول مرة منذ مدة طويلة يسأل الموظف السابق الذي يدير القهوة عن شلة الأدباتية وهل يحضرون أحيانا أم أنهم انقطعوا عن الحضور، وعندما جاءه الجواب بانقطاعهم منذ مدة طويلة، تساءل المعلم في غير حماسة وكأنه يسأل نفسه:

ـ وما حدش عرف إيه الحكاية؟

ـ مين هيسأل يا معلم؟ إحنا أيام كثيرة بنشتغل بإيدينا وإسناننا، والعمال أغلبهم سافر العراق، والحكاية بقت مقشفرة ع الآخر.

واستبد الهم بالمعلم كتكوت فلو أن الولد حسن ـ ابنه الوحيد الذي بقى على قيد الحياة ـ استمع إلى نصيحته وكف عن افتعال المعارك ضد الآخرين، لكان الآن على قيد الحياة ولكان الآن ذراعه اليمنى في الورطة التي يواجهها الآن. كم مرة نصحه بالابتعاد عن جماعة الكوامل الذين يحتلون الرصيف المواجه للقهوة.

إنهم نوع صعب من البشر مستعدون للموت في سبيل الحصول على ما يعتقدون أنه حق لهم وهم أقوياء ومتحدون ولكن حسن كان مغرورا بقوته الجسدية، ويتصور أنه قادر على هزيمة أعدائه وحده دون معين.. يا له من يوم أسود من قرون الخروب عندما جاء إلى القهوة في الصباح الباكر ليجد جثة حسن مطروحة على الرصيف وآثار معركة رهيبة تبدو واضحة على الجدران وأرضية

الشارع وبقايا أقفاص الموز التي تبعثرت محتوياتها على الرصيف، مات حسن بضربة شومة على رأسه جعلت مخه يتناثر على الحيطان مع بقع دم كبيرة منه ومن منافسيه فلم يكن حسن لقمة سائغة، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون!

ما العمل الآن يا معلم كتكوت؟ والسفر إلى العراق أصبح أمرا ضروريا خصوصا وقد عرف من الولد «أبو سريع» أن السفر لا يحتاج إلى التأشيرة فدخول العراق مباح لكل العرب، وليس مثل بلاد الخليج دخولها يحتاج إلى تأشيرة وإلى كفيل. لا كفيل في العراق إلا الله الواحد الأحد الذي يكفل الجميع،، وفي المساء كان يجلس مع الموظف السابق «عبد المقصود» وبادره المعلم قائلا:

ـ شوف يا خويا يا عبد المقصود، إنت راجل طيب وأنا ارتحتلك، وبعدين أنا مسافر العراق كام يوم كده، وما حدش يعرف الموت م الحيا.. والغيب في علم الله، عشان كده أنا فكرت أسيبلك القهوة بس بالإيجار، وهنكتب ورق عشان كل واحد يعرف راسه من رجليه.

وقال عبد المقصود والدهشة لم تفارقه.

ـ وبكام يا معلم.

ـ أنا مسامح بـ ٥٠٠ جنيه في الشهر، ودا عشان خاطرك، واللي هيطلع منها حلال عليك.

ـ مش كثير يا معلم؟

ـ أنا حددت المبلغ دا عشان خاطرك وبعدين أنا مسامح وربنا يباركلك.

ورد عبد المقصود على الفور:

ـ اللي تؤمر بيه يا معلم.

ـ خلاص، أنا قلت للواد كامل، الكاتب بتاع الأستاذ صالح المحامي ييجي القهوة بكرة ويكتب العقود، ونروح بعد بكرة نسجلها في الشهر العقاري وعلى بركة الله. تمت الإجراءات كلها بسرعة وأصبحت قهوة كتكوت من نصيب عبد المقصود، يتصرف فيها كما يشاء إلا الاسم، فستظل إلى الأبد قهوة كتكوت وذات صباح ارتدى المعلم كتكوت اللي على الحبل كله واستقل الطائرة المصرية إلى بغداد. في الطائرة تمنى العثور على الواد ريعو بسرعة وأن يقوم بترحيله إلى القاهرة على الفور ولو استدعى الأمر منحه نسبة من أرباح القهوة. ويا سلام لو سنحت الفرصة بالقيام بعمرة في الأراضي المقدسة، يقولون إن الحجاز على مقربة من العراق، فتكون زيارة وتجارة في الوقت نفسه. لو تحقق كل هذا الذي يحلم به المعلم كتكوت، فإنه يكون قد نال كل ما يتمناه.

عودة ريعو والانتقام من الأستاذ طلبة خاطف عزيزة والعودة إلى مكانه وراء المكتب في القهوة واستئناف الحياة كما يشتهي، ويضمه بيت واحد مع عزيزة التي ستعيد إليه شبابه المفقود. في مطار بغداد لفتت نظره المعاملة الخشنة التي يعامل بها المصريون، ولكنه لم يتوقف عندها طويلا فهذه المعاملة يجدها العمال المصريون

في مطار القاهرة نفسه، واسترعى انتباهه أسئلة رجال الجمارك للمعلم عن البضائع التي يحملها معه، ثم دهشتهم الشديدة عندما لم يعثروا معه إلا على ملابسه.. غريبة!! لم يشاهدوا أحد مثله من المصريين القادمين منذ مدة طويلة. فتشوه بسرعة وتركوه ينصرف، وفي التاكسي الذي اشترك فيه مع آخرين من المصريين اكتشف أن الجميع في طريقهم للمربعة بعضهم كان من المترددين على بغداد منذ فترة طويلة، وبعضهم يضع قدمه على أرضها لأول مرة عندما وقع بصره على المربعة أول مرة هتف: يا سبحان الله الخالق الناطق مثل حي الفوالة ومثل سوق الليمون في باب الشعرية والناس كلهم من مصر، أصحاب المحلات والعمال الذين يعرضون ما جلبوه معهم من بضائع على الرصيف وهي بضائع بسيطة، ليمون بنزهير، ثوم، مجموعة فونيات لبوابير الجاز، علب زيت طعام، راح يسأل عن الواد ريعو ولكنه اكتشف أن أحدا لا يعرفه، بعضهم قال له:

ـ يمكن في البصرة يا معلم، أو مين عارف يمكن في دهوك.

ـ وفين البصرة؟

ـ لزق في الكويت لا مؤاخذة.

ـ ودي عاوزة تأشيرة؟

ـ لا يا معلم، دي حتة من العراق، زي ما تقول أسيوط كده.

وركب المعلم مع بعض المصريين إلى البصرة يا سلام على أرض العراق، الخالق الناطق زي أرض مصر بس للأسف مش

مزروعة كلها، والملح باين في الأرض مع أن «النيل» ماشي في قلبها وها هي البصرة حاجة كدة زي رشيد من غير مؤاخذة، والناس بتوع العراق ـ الحق يتقال ـ أجدع ناس من غير مؤاخذة. الشيء الوحيد الذي ضايقه بشدة.

ـ الواد ريعو مالوش أثر هنا.

ـ يمكن راح دهوك يا معلم.

ـ ودهوك دي فين؟

ـ دي جنب تركيا يا معلم.

ـ عجايب هيه تركيا النواحي دي كمان؟ لكن مين اللي هيودي ريعو هناك؟

ـ أكل العيش يحب الخفية يا معلم.

عاد المعلم كتكوت إلى بغداد وإلى المربعة من تاني. من حسن حظه أنه التقى بسواق مصري على نياته يذهب إلى دهوك مرة كل أسبوع اتفق المعلم على السفر معه.

ـ يا حلاوة يا ناس على دهوك، دا ناس خواجات كلهم وبيرطنوا من غير مؤاخذة.. ودول مسلمين كمان؟

ـ مسلمين وسُنَّة يا معلم.

ـ يا سلام على قدرة ربنا، ويخلق ما لا تعلمون.

لكن الأمر المؤسف أن ريعو ليس له وجود هنا أيضا.. طيب

يا ريعو الكلب أنا وراك والزمن طويل وعاد المعلم من جديد إلى المربعة في بغداد يبدو أن الدنيا مستمرة في عنادها ولا بد من العودة إلى القاهرة.. نصحه أحدهم إذا رغب في العودة أن يذهب بجواز سفره إلى إدارة المواطنين العرب ليحصل على تأشيرة الخروج. لم يفهم المعلم ما هو المقصود من تأشيرة الخروج ولكنه ذهب يا قوة الله، الناس تحيط بالمبنى وكأنهم في يوم الحشر ناس من كل الأمم، دا مصري ودا سوداني ودا تونسي ودا يمني ودا لبناني، ودا مسلم ودا أرثوذكسي، أمم من غير مؤاخذة، والشمس حراقة يا أبا، والعساكر ما بترحمش، والضرب في الناس على ودنه، ودي بهدلة إيه ده؟ مش لازم تأشيرة خروج، ما يمشي وخلاص، وبالفعل لم يستمع إلى نصيحة أحد، أخذ بعضه وذهب إلى المطار وعبثا حاولوا إفهامه أن السفر مستحيل بدون تأشيرة خروج وصرخ بأعلى صوته وسب الأخضرين.

ـ عجايب يا ناس، قال بطلوا دا واسمعوا دا، دي بلد أو فخ قال إيه؟ تيجي يا مرحبا بك تخرج لا، دا حمار مين اللي عمل النظام ده.

انهال العساكر على المعلم كتكوت وأعطوه بسطة عراقية محترمة وأرسلوه إلى السجن ووجد المعلم نفسه أخيرا في محكمة الثورة.

ـ محكمة ليه يا سعادة الباشا هوه أنا أذنبت؟ أنا عاوز أرجع بلدنا.

ـ فيه قانون لازم نحترمه.

ـ قانون إيه يا باشا، دا اللي عامل القانون دا حمار.

ـ بتقول مجلس قيادة الثورة حمار؟

ـ مين هوه الثورة دا، أنا ما عرفش حد بالاسم دا.

ـ عشرة سنين سجن.

ـ بتقول إيه؟ عشر سنين يا كافر، ليه أنا قتلت حد؟ عندما جذبه العساكر من قفاه ليخرجوه من المحكمة قاومهم المعلم بشدة.

طرح أحدهم على الأرض وكسر فك الآخر. ولذلك أعادوه مرة أخرى إلى المحكمة ليستمع إلى الحكم عليه في التهمة الجديدة لم يتمالك المعلم نفسه عندما سمع الحكم عليه بالمؤبد.. مؤبد يا ولاد الكلب، لو كنت في بلدي لما تعدى الحكم أكثر من شهر سجن. ومع ذلك طرد المعلم من رأسه فكرة المقاومة؛ لأن الحكم القادم سيكون الإعدام.

استسلم لمصيره وذهب مع العسكر إلى سجن عمومي يختلف عن السجن الذي كان فيه، وعرف فيما بعد أنه على مسافة عدة كيلومترات من بغداد. يا رحمة ربنا، عنابر كلها مصريين وسودانيين وناس من فلسطين ومن الصومال.

ويا ضربة الحظ التي كان ينتظرها المعلم كتكوت لقد عثر في النهاية على الكنز الذي كان يبحث عنه.

ـ حمد الله ع السلامة يا معلم.

ـ هوه إنت يا وش النحس؟ يخرب بيت أبوك إنت اللي رميتني في المهالك دي.

ـ مهالك إيه يا معلم؟ كلها كام شهر إنشاء الله وتطلع على مصر بإذن الله.

ـ كام شهر إيه يابن المجنونة دنا واخد تأبيدة.

ـ ولا يهمك يا معلم، فيه ناس كانت واخدة إعدام وأفرجوا عنهم، حاكم هنا كل كام شهر يفرجوا عن المساجين العرب في عيد الثورة، وعيد الرئيس، رئيس عربي يتوسط، حاجات كثير بتفتح باب السجون وتمشي الناس من هنا.

وانت واخد كام يا وله؟

ـ عشر سنين يا معلم.

ـ ليه عملت إيه؟

ـ بيني وبينك أنا غلطان، واد سواق مصري بيشتغل مع الجيش كان بيجيب سلاح من الكويت ويدرب جنب إيران والحرب كانت شغالة، ويجيب من هنا قتلى عراقيين يدفنوهم هنا اشتغل في التهريب، ياخد ناس معاه وهوه رايح الكويت ويلبسهم عساكر، وفي الكويت ينزلهم، كانت شغلة حلوة ومكسبها كتير، طمع.. بقى يهرب عراقيين هرشوه ومسكوه.

ـ طيب وإنت مالك؟

ـ ما هو كان بيخبي عندي لبس الجيش اللي هيلبسوه الهربانين.

ـ أمال أنا سألت عنك في المربعة ما حدش عرفك.

ـ مانا مارحتش المربعة دي خالص، أنا كنت في بلد اسمها إسكندرية الشغل كتير هناك والمكاسب حلوة قوللي يا معلم.. إزي القهوة؟

ـ قهوة إيه بقى، هوة إحنا هنشوفها تاني!

ـ إيه رأيك إحنا هنشوفها قريب يا معلم كام شهر وبكره تفتكر يا معلم.

واستقر المقام بالمعلم كتكوت في سجن «أبو غريب» ومعه الواد ريعو، الذي علم منه تفاصيل هروب عزيزة مع الأستاذ طلبة وانفعل الواد ريعو بما سمعه من المعلم، لدرجة أنه قضى الليل كله يبكي وهو ممدود على الأرض بجوار المعلم كتكوت.

١٧ - شباك على دجلة!

مضت الأيام بطيئة وكئيبة في سجن أبو غريب، وبعد مرور عدة أشهر فقد المعلم كتكوت صبره وفقد أمله في الخروج يوما ما من هذا القبر. وعبثا حاول الواد ريعو أن يعيد الطمأنينة إلى قلب المعلم، ولم يكن المعلم على استعداد لسماع أي شيء عن العفو الذي سيصدر فجأة، ويعيد المعلم من جديد إلى ميدان الجيزة وإلى قهوة كتكوت. ترى.. ما الذي حدث للقهوة من بعده؟ هل انضبطت أمورها؟ هل تم تجديدها؟ هل تحطمت وتناثرت أشلاؤها؟ والمعلم كتكوت يعرف من تجربته أن القهوة بالمعلم وليس العكس. وقهوة بدون معلم لا بد يصيبها الخراب، ولا بد يهجرها الزبائن؛ لأن المعلم في دنيا القهاوي هو الأصل، إذا كان المعلم ابن مهنة وله مهابة وموضع احترام، فستكتسب القهوة نفس الوضع والعكس بالعكس! وهذا الموظف الذي حل محله في القهوة، لا هو معلم ولا هو قادر على حمايتها، وخروجه الآن من السجن قد يكون هو الحل الوحيد لإنقاذ القهوة قبل أن يلحق بها الخراب، ولكن كيف يخرج من هذا القفص الحديدي الذي يشبه بيت الأسد في حديقة

الحيوان، لا بد أن هناك وسائل للخروج ولا بد من اكتشافها، وذاع أمر المعلم كتكوت بين نزلاء السجن، وذات يوم أثناء الفسحة الصباحية تقدم منه أحد النزلاء وقدم له نفسه، عراقي من البصرة، ورحب المعلم بالنزيل وقال:

ـ أنا زرت بلدكم، الحق يتقال بلد ترد الروح، خصوصا النخل اللي هناك والميه اللي زي العسل الأبيض.

وسكت المعلم فترة قبل أن يسأل النزيل:

ـ وانت من غير مؤاخذة تهمتك إيه؟

ورد الرجل العراقي على الفور:

ـ أنا من حزب الله.

وقال المعلم كتكوت:

ـ سبحان الله.. أنعم وأكرم. لكن من غير مؤاخذة تهمتك إيه؟

ـ قلت لك أنا من حزب الله.

ـ ونعم بالله. لكن السجن ليه؟ قتل، مخدرات، التهمة إيه؟

ـ يظهر أنك مش راح تفهم. ع العموم، إنت هنا ليه؟

ـ واللي خلقك مانا عارف، أنا رحت أجيب إذن عشان أسافر، حصلت خناقة نزل العساكر فينا ضرب، وإحنا كمان ضربناهم، جرجرونا على الثورة.

ـ جرجروك على وين؟

ـ محكمة اسمها الثورة. وهناك وقعت خناقة بيني وبينهم، وعينك ما تشوف إلا النور.

ـ وحكموك أد إيش؟

ـ يحكموا زي ما هم عاوزين، أنا مش قاعد، وريني سبيل للهرب وخيوب عليَّ إذا ما هربت من هنا.

ـ أنصحك يا معلم ما تردد هادا الكلام: لو سمعوك هيصفوك.

ـ يعملوا إيه؟ يصفوني. حلوة دي، هوه أنا قوطة من غير مؤاخذة. ابتعد النزيل العراقي وتسلل في زحام العنبر واختفى عن الأنظار، وسرح المعلم كتكوت في كلام زميله العراقي، يبدو أن تهمته بطالة من غير مؤاخذة ولذلك أخفاها واكتفى بأنه من حزب الله! دنيا وسيدك عالم بأحوالها، ومن شاف بلاوي الناس هانت عليه بلوته. مر أسبوع كامل قبل أن يرى النزيل العراقي مرة أخرى.. ولكن الرجل لم يبد أي رغبة في الحديث إليه، وسرعان ما غاب في الزحام واختفى. لا بد أنه معتوه هذا الشخص، وهو معذور؛ لأن السجن هنا يذهب بالعقول. السجون في مصر تختلف، المعلم دخل سجن مصر زمان في خناقة لمدة شهر، ولم يشاهد خلال مدة سجنه أي مظهر من مظاهر العنف كما هو الحال هنا. صحيح يوجد عساكر في منتهى الغلاسة، ولكن كل شيء حتى الغلاسة لها حدود. بعد فترة التقى وجها لوجه مع الرجل العراقي الذي أقبل على المعلم في شوق شديد، ثم مد يده للمعلم بعلبة سجاير (بابل) حكمة الله أن سجائرهم من نفس النوع.. نفسها ثقيل.

ولكن ما الذي جعل الرجل العراقي يتغير هكذا وبسرعة؟ لا بد أن رأسه أصابه التلف بعد قضاء عدة سنين. الواد ريعو فلحوس قال للمعلم احذر هذا الرجل العراقي وأمثاله. كان رجال المباحث يحضرون إلى المصريين في المكان الذي يعمل فيه ويحذرونهم من أعضاء حزب الله. ويطلبون منهم الإبلاغ عنهم؛ لأنهم يريدون انتزاع الحكم وطرد المصريين وجميع العرب من العراق. وتصور المعلم كتكوت أن الواد ريعو أصابه مس هو الآخر. فهؤلاء الناس من حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، ولكن الواد ريعو مصر على أن الاتصال بهؤلاء الناس خطر، فالحكومة علقت الكثير منهم على المشانق، واضطر العشرات منهم إلى الهرب واللجوء إلى البراري في جنوب السودان، ومئات هاجروا إلى إيران، ولكن المعلم كتكوت ضحك بسخرية وقال لنفسه (الواد ريعو بقى ضليع في الفلفسة!) بعد أسبوع آخر كان عدد أفراد الحراسة أقل وأشعة الشمس تنفث موجة من الدفء في فناء السجن المفروش بالرمال. جاء الرجل العراقي مرة أخرى ودس في يد المعلم علبة سجائر (سومر) وقال للمعلم كتكوت في ود حقيقي:

ـ شوف يا بو...

ـ أبو حسن، لو كان عايش دلوقت ماكنتش شفت المر ده..

ـ الله يرحمه، شوف يا بو حسن. إحنا نخاف نعمل علاقة مع جماعة المصريين اللي يشتغلون هنا؛ لأن وجودهم في العراق مرهون بدخولهم عباءة حزب البعث.

لم يفهم المعلم كتكوت حرفا مما نطق به الرجل العراقي الذي واصل حديثه:

ـ أنا.. جبار الحسين علي. وبصراحة أنا قلبي انفتحلك؛ لأنك راجل صادق ما لك علاقة بالحزب ولا بالمباحث.

اختفى الرجل العراقي فجأة كأنه فص ملح وذاب عندما اقتحم الحوش أحد ضباط السجن، وهو رجل شرس وقبضة يده في حجم البطيخة الكبيرة. ولم يمنع اختفاء الرجل العراقي جبار أن يستمتع المعلم كتكوت بسجائر السومر. ولم ينس المعلم عندما أغلق الحارس الزنزانة في المساء أن يسأل الواد ريعو سؤالا مباغتا ربما كان رد فعل للجلسة مع جبار:

ـ إنت ياد شغال مع المباحث هنا؟

ـ لا يا معلم، أنا ماشتغلتش. همه صحيح قالولي لما تشوف حاجة أو أي حد ضد الحكومة بلغنا على طول، وأنا قلت حاضر، بس أنا ما شفتش حاجة لحد ما مسكوني وجابوني هنا.

ـ وخدت منهم فلوس يا ولد؟

ـ لا يا معلم، همه ما بيدوش فلوس، إنت تبلغ وهمه يسيبوك تقعد في العراق تشتغل وترزق هنا.

ـ عجايب، صحيح بطلوا دا واسمعوا دا.

وسأل ريعو وهو يشعر بقلق.

ـ هوه حد قالك حاجة يا معلم؟

ـ أنا سمعت إن كل اللي هنا كان لازم يبلغوا.

ـ مش لو شاف حاجة يا معلم؟ وبعدين إحنا حنشوف إزاي؟ إحنا كنا طول النهار شقيانين في الشغل، لكن كل الناس كانت بتقول حاضر. شعر المعلم كتكوت بالقلق الشديد، وربما أدرك بشكل ثابت أنه وقع في شر أعماله وأنه لن يغادر هذا البلد على قدميه. ملعون أبو عزيزة؟ لولاها ما تعرض المعلم كتكوت لشيء مما تعرض له الآن. ولكن ما ذنب عزيزة؟ المعلم هو سبب كل المصائب، وعقله الزنخ هو الذي قاده إلى المهالك. ولكن هل الندم سيخلصه مما هو فيه؟ ليس أمام المعلم الآن إلا الاعتماد على جناب الله، فهو وحده القادر على تخليصه من هذه المحنة ورده إلى حيث ينتهي، القهوة وميدان الجيزة وأكلته المفضلة طاجن التورلي بالكتف الضاني وسلطانية الطرشي بمية الدقة من دكان عم عبد النبي.

الواد ريعو جاء بخبر طيب وسط الأحوال السيئة. مجلس قيادة الثورة سينشر كشفا بأسماء المساجين العرب المفرج عنهم بمناسبة تأميم شركات البترول الأجنبية. قال الواد ريغو صادقا هذه المرة:

ـ لو الأحلام تحققت ياد يا ريعو مش هتشتغل معايا في القهوة.

ـ ليه يا معلم؟

ـ مش هتشتغل عندي بالأجرة بعد كده، هتبقى شريكي، هتشتغل معايا بنسبة، هيبقالك حصة في القهوة.

وصاح الواد ريعو مهللا:

ـ يا سلام يا معلم، دنا هاعمل منها جنة.

ـ بس يا رب الكلام يطلع مضبوط، ويكون فيه كشف صحيح.

ـ دا كلام الشويش نفسه.. أبو دينا السمين دا، ودا راجل زي السيف، وإن شاء الله هنكون في مصر بعد كام أسبوع.

ومضت الأسابيع والشهور ولم يظهر أثر للكشف، ويبدو أنه لن يظهر في أي وقت، وأخيرا ظهر الرجل العراقي جبار، جاء إلى المعلم كتكوت ليودعه فقد تقرر نقله مع جماعته إلى سجن آخر في الشمال في العمادية وهو سجن تحت الأرض لا ترى فيه شمسا ولا تشم فيه نسمة هواء، تمنى له المعلم من قلبه أن يفك الله سجنه وأن ينعم بحريته في المستقبل القريب. قال جبار بصوت مبحوح:

ـ لم يدخل أحدنا السجن وكتب له أن يرى الأسفلت مرة أخرى.

رد المعلم كتكوت:

ـ خليك مع الله يا جبار واستبشر.

قضى المعلم كتكوت ليلته يفكر في مصير جبار، هل صحيح

الداخل إلى هنا مفقود، جبار وجماعته والمعلم كتكوت أيضا. لو لا الخوف من أن يموت على الكفر لقتل نفسه بيده. فحتى الحيوانات لا تطيق هذه العيشة على الإطلاق. وملعون أبو العيشة على هذا المستوى خصوصا إذا فرضت على الإنسان في نهاية العمر. في الصباح الباكر وصياح الديكة يتصاعد في الحقول المحيطة بسجن أبو غريب سقط المعلم كتكوت نائما أو مغشيا عليه بمعنى أصح. ولم يدر المعلم كم من الوقت مضى، ولكنه نهض مذعورا منهك القوى فقد رأى حلما مزعجا للغاية، جماعة من منافسيه الطامعين في القهوة، اقتحموا القهوة ذات مساء وضربوا الزبائن والعمال ثم حاصروا المعلم داخل النصبة ثم راحوا يضربون بالشوم على رأسه، ثم جروه من ساقيه خارج القهوة ووضعوه مغمى عليه على شريط السكة الحديد، وبالرغم من الإغماءة التي احتوته إلا أنه شعر بعجلات القطار وهي تمزق أوصاله، وعندما استيقظ كانت هناك ضجة شديدة. وعدة أشخاص يفتحون باب الزنزانة في عنف ملحوظ. خفق قلبه بشدة من الخوف، ثم سرى في نفسه شعور بالتفاؤل، فمن يدري؟ لعلهم جاءوا بكشف الإفراج ولا بد أن اسم المعلم على رأس الكشف، ولا بد أن فرج الله قريب، وهو لا يأتي غالبا إلا بعد شدة ثقيلة. نظر إليه بعض الرجال الذين اقتحموا الزنزانة وأمروه بالنهوض. ولم يستطع أن يميز من لهجتهم أي طريق سيدفعون به إليه. ولكنه نهض ودخل مكتب المأمور معهم وخلع ملابس السجن وارتدى ملابسه التي جاء بها إلى السجن، لا بد أنه الإفراج على بركة الله، ولكن أين الواد ريعو. أراد أن

ينبههم إلى أن ريعو يعمل قهوجي عنده وأنه مظلوم أيضا، ولكنهم نهروه وأمروه بالصمت ثم دفعوه إلى خارج السجن وأركبوه سيارة وأحاطوا به من كل ناحية وسارت السيارة تتهادى على طريق أسفلت. وبالرغم من أنه كان عاجزا عن رؤية أي شيء خارج السيارة إلا أنهم وضعوا عصابة سوداء على عينيه. وبعد حوالي ساعة زمن توقفت السيارة وأنزلوه منها، وعندما أصبح في المكان الذي ساقوه إليه فكوا العصابة واكتشف أنه في سرداب تسرح فيه العناكب الصغيرة والخنافس وعلى الحوائط تزحف الأبراص من جميع الأحجام. وزفر المعلم كتكوت وهتف في ضيق شديد (صحيح اللي ما يرضاش بالخوخ يرضى بشرابه) استمر المعلم في هذا السرداب ثلاثة أيام قدموا له الطعام خلالها مرتين، رغيف صمون لا يكفي صبيا في العاشرة من عمره وطبق به بعض المرق وقطعه لحم لزجة ومتهرئه وكأنها لحم برص من الأبراص التي تملأ المكان.. وبعد اليوم الثالث استدعوه للتحقيق. كان أول سؤال.. ما علاقتك بجبار.. جبار مين؟ يا قوة الله، هذا الرجل الذي تعرف عليه في الحوش. عليّ الطلاق بالثلاثة لا أعرف، ولم أعرف اسمه إلا بعد ثالث لقاء في الحوش. هل تعلم أنه من حزب الله، هو جبار دا اللي قاللي. قالك إيه؟ قاللي إنه من حزب الله. وانت تعرف فعاليات حزب الله وتعرف أهدافه؟ أنا ما عرفش حاجة. طيب واتكلمت معاه ليه؟ إحنا يا سعادة الباشا في سجن ربنا يكفيك شره، والواحد ما يصدق يلاقي حاجة تشغله عن الهم اللي هوه فيه.. هل منحك بعض علب السجائر؟ أيوه سجاير أول

علبة كان نفسها حامي قوي، والعلبة الثانية كانت أحسن، وكان نفسي أديله حاجة بس العين بصيرة واليد قصيرة. وآخر مرة كان جاي مخصوص يودعك.. مش كده؟ يودعني يعني رايح الحجاز، أنا يا بيه معرفوش وشرفك أنت. عندما انتهى من عبارته الأخيرة ضربه أحدهم بقطعة حديد على رقبته جعلت رأسه يميل على صدره. وجاء صوت المحقق قائلا في حدة شديدة:

ـ هاتتكلم واللا نوديك الشباك.

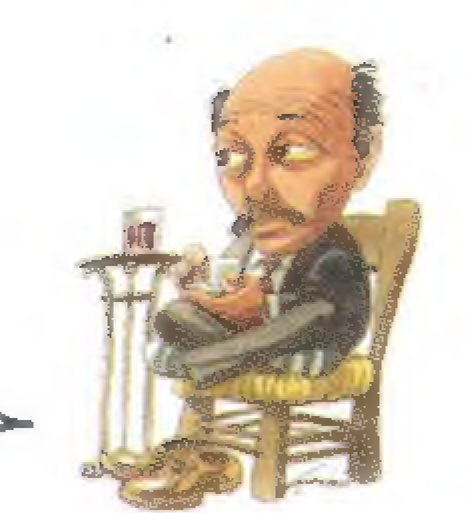
ـ يا بيه هاتكلم أقول إيه، عليّ الطلاق ما اعرف حاجة.

أشار المحقق للرجل الواقف خلف المعلم بأن يذهب به، أخذوه إلى الشباك، لا شباك هناك ولا يحزنون، إنه نفق ضيق ومظلم تشعر داخله كأنك في ماسورة، ينتهي النفق بباب حديد من ضلفتين. وتتوسطه دكة خشبية طويلة وضيقة. أشبه بسرير عمليات، وعلى الحوائط عدة آلات، شواكيش ومسامير ومناشير وزجاجات رائحتها تدل عليها، سبرتو وخل وصبغة يود وكميات من القطن والشاش. نام المعلم ليلته على الدكة وفي الصباح جاءه المحقق من جديد، هدده بأنه إذا لم يتكلم ويقول كل شيء، فسيكون لحمه طعاما للسمك، وأمر الحارس بفتح باب السرداب. وتجمد الدم في عروق المعلم كتكوت، كان وراء الباب مجرى ماء يجري متدفقا صاخبا وله زئير. وقال المحقق للمعلم. هذا هو نهر دجلة.. تعرفه؟ تسمع عبد الوهاب يغنى.. يا شراعا وراء دجلة يجري. هذا هو دجلة. وبعدين شوف. إنت مصري والمصريين بالألوف في العراق، عشان

إحنا عروبيون ونحب العرب. هذا حزب الله لو مسك السلطة راح يذبح المصريين. تحب تذبح المصريين أنت؟ احسنلك تتكلم، قول جبار جالك إيه؟ وأعطاك إيه يوم ما جاء يودعك؟ فاهم والا هانقطعك بالمنشار ونحدفك على دجلة!

* * *

لا أحد يعرف ماذا حدث للمعلم كتكوت. ولكن الأكيد أنه لم يخرج من السرداب قط، ولم يره أحد بعد ذلك. ولكن بعد دخوله السرادب بأسابيع أصدر مجلس الثورة كشفا بالإفراج عن بعض المسجونين العرب كان الواد ريعو من بينهم.. فعل الواد ريعو المستحيل لكي يعود إلى مصر. ونجح في السفر برا إلى الأردن وبالمركب إلى سيناء وبالسيارة إلى القاهرة، كان في ظنه أن المعلم كتكوت سبقه إليها، فقد تم الإفراج عنه قبل الكشف بأسابيع، ليت المعلم يصدق في وعده، يعمل في القهوة كشريك، وله نسبة في الأرباح. يا سلام يا ناس، صحيح الوطن غالي. ها هي الجيزة وكوبري عباس وميدان الجيزة وها هي القهوة.. أين القهوة؟ لم يعد هناك قهوة على الإطلاق. لقد انشقت الأرض عن عمارة ضخمة والقهوة اختفت وحل محلها دكان أحذية مستوردة من أغلى الماركات. أين شلة الأدباء، أين الواد حميدو؟وأين عم عبده؟ وماذا حل بالرصيف القديم؟ وأين الميدان نفسه؟ لقد اختفى وراء الكباري العلوية والأسوار ومواقف السيارات. لقد انتهت الدنيا يا ريعو، ولكن أين المعلم كتكوت؟

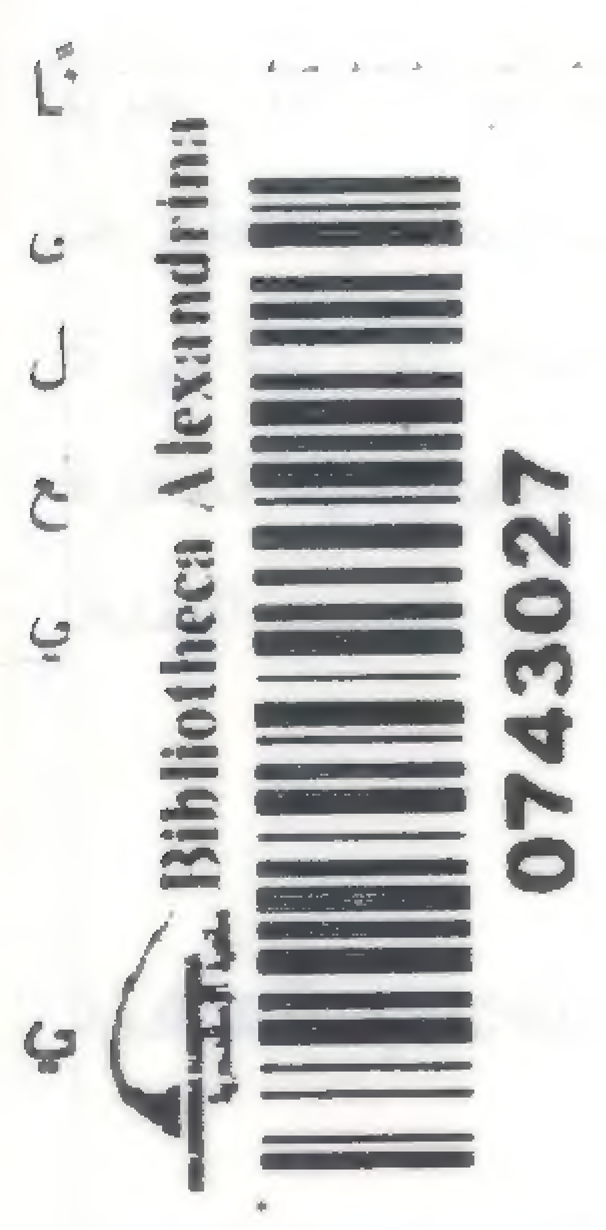


حكايات قهوة كتكوت

ولأني حمقري (مزيج من الحمار والعبقري) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلّاس.. ولأني حمقري كنت أرفع شعارًا حمقريًّا «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تقرقع على لسانه تقرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضًا حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطيبة على الجبين، والرعشة في أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. ياالاللي! وهو يدور بها على خلق الله يبيعهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، اكسسوارًا يرتديه الحزين الهلفوت ويسترزق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوسًا أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضي.. وهي تظل إلى آخر لحظة في الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضي الإنسان صاحب الحزن العظيم – ككل شيء في الحياة – يأكل ويؤكل، ولكن مثله لا يذاع له سر، وقد يمضي بسره إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكي وما أصعب أن تضحك.

ولكن هناك أيضًا ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الـ ... ـًا
في الأعماق صار عبقريًّا، وإذا كان مجدبًا من الداخل أصبح بليا... ـى
قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظًّا في إنتاج المضحكين.. مصر الـ ... ـل
جيل عشرات من المضحكين، ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمـ ... ـع
كبالونة منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالصو، بعضهـ ... ـي
وبعضهم مثل الذهب القشرة.




6 221102 026574

دار الشروق
www.shorouk.com